السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة العاديات

دروس في تفسير القرآن الكريم

المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة العاديات

الطبعة الأولى

٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ



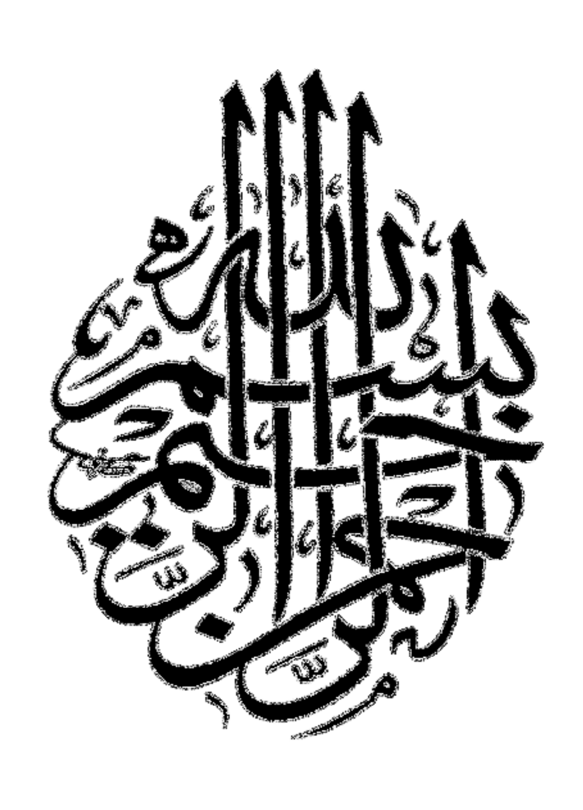
المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة العاديات

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1)

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2)

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7)

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9)

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10)

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

صدق الله العلي العظيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

فهذه الكلمات التي نضعها بين يدي القارئ الكريم قد قيلت في عدة جلسات، خصصت للتداول في بعض ما ظننا بعقولنا القاصرة أن آيات سورة العاديات قد ألمحت إليه.

ورجاؤنا الأكيد من القارئ الكريم: أن يغض الطرف عما فيها من بيانات قاصرة، أو أفكار عن القصد جائرة، فإننا لا نبرئ أنفسنا من الخطل والزلل، في الفكر، والقول والعمل، فإن الجواد قد يكبو، والسيف ينبو.. فما بالك بأمثالنا.. ممن ظهر قصوره، وألم به تقصيره..

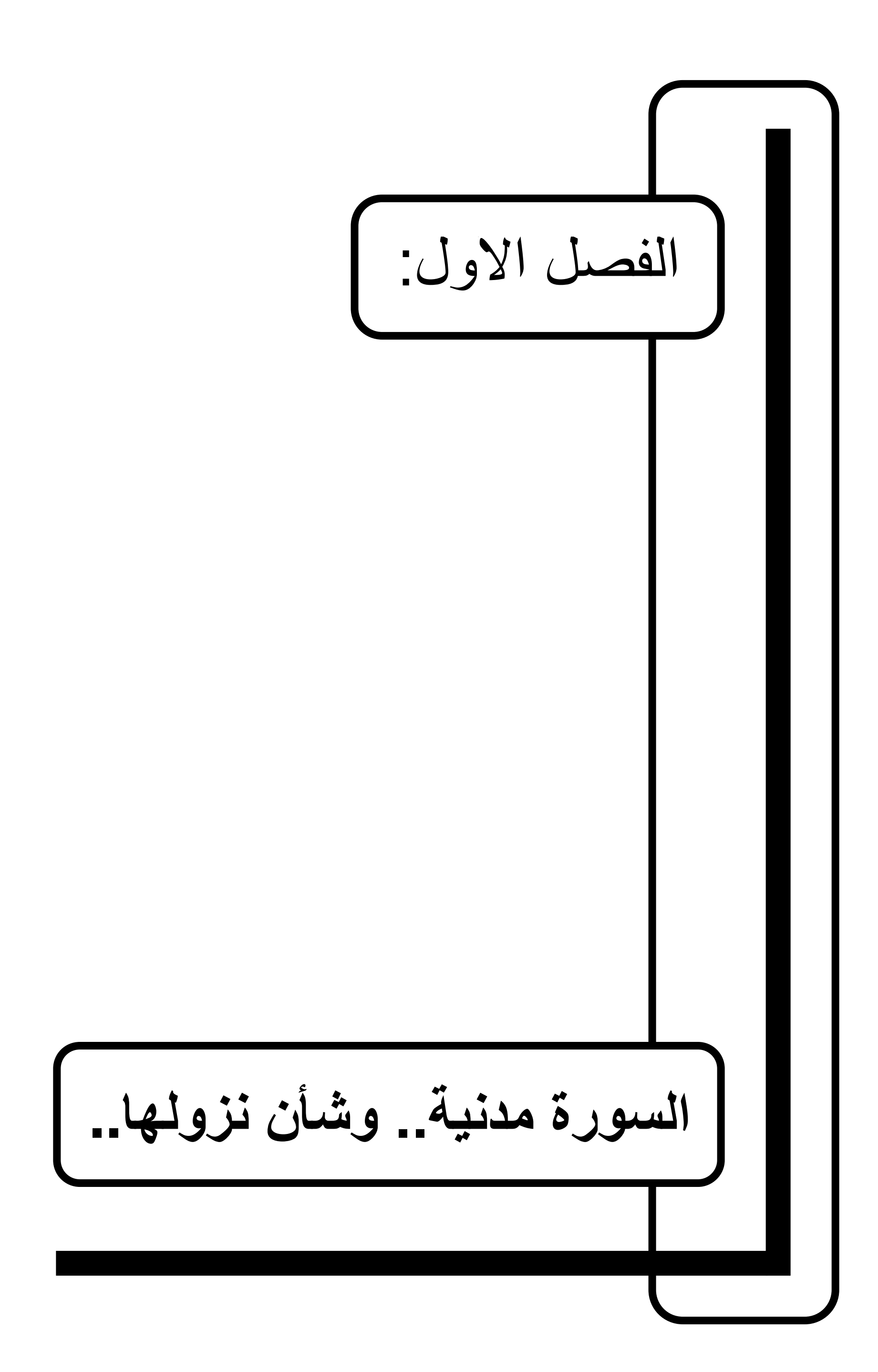
ونستغفر الله، ونسـأله أن يعيننا على أنفسـنا، ونؤمن به، ونتوكل عليه، وبالأطيبين الأطهرين: محمد وأهل بيته، نقسم عليه: أن يشملنا برحماته، ويغمرنا بألطافه، إنه ولي قدير، وبالإجابة حري جدير..

الضاحية الجنوبية ـ بيروت ـ لبنان

حرر بتاريخ 11/شهر رمضان /1437 هـ.ق.

الموافق 17/حزيران/ 2016م.ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي



الفصل الاول:

السورة مدنية.. وشأن نزولها..

العاديات مكية أو مدنية؟!:

اختلفوا في هذه السورة.. هل هي مكية أو مدنية؟!

وقد استدل الفريق الأول على مكيتها بعدة أدلة، نذكرها، ونجيب عنها باختصار، وهي التالية:

الدليل الأول على مكية هذه السورة: قصر مقاطع آياتها.

ويجاب عنه:

أولاً: بأن في السور المدنية سوراً تكون مقاطع آياتها قصيرة أيضاً، مثل: سورة الرحمان، وسورة الزلزلة.

ثانياً: إن طول الآية وقصرها ليس مرتبطاً بمكان نزولها، بل هو مرتبط بموضوعها، وبالحالات والأوضاع التي يراعيها المتكلم، وهو بصدد معالجتها، أو التعامل معها.

الدليل الثاني: إنها استندت إلى القَسَمْ، وإنما كان هذا في السور المكية.

ويجاب:

بأنه إنما يستفاد من القسم ويستند إليه، لكسر عناد المخاطب أينما وجد هذا المخاطب المعاند، سواء جرى هذا الخطاب في مكة أو في المدينة، أو في

غيرهما، فإن القسم طريقة إقناعية، وليس لخصوصية في مكة أو في المدينة.

الدليل الثالث: إنها تناولت موضوع المعاد، وهذا إنما كان في السور المكية.

ويجاب:

أولاً: في السور المدنية أيضاً حديث عن المعاد، كسورة: الزلزلة، والرحمان.. وكان يوجد منكرون للمعاد في مكة، كما كان في أهل المدينة وفي سائر القبائل حولها، وكذا كان في سائر البلاد، مشركون، ومن ينكر المعاد.

ثانياً: إن الحديث عن المعاد في سورة العاديات ليس لأجل إثباته لهم، كما هو الحال في السور المكية التي كانت تستدل لهم تارة بخلق آدم، وأخرى بخلق عيسى، وأخرى بقدرته تعالى على تسوية بنان الإنسان، وما إلى ذلك.. بل الهدف هو تخويفهم منه، ومنعهم من الاستسلام للمغريات، والشهوات، وتحذيرهم من الإغراق في حب الدنيا، وضرورة النظر إلى مصيرهم في الآخرة.

أما القول بأن هذه السورة مدنية، فيدل عليه أمران:

أولهما: ما سيأتي، من أنها نزلت في قضية غزوة ذات السلاسل، التي كانت في السنة الثامنة بعد هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» من مكة إلى المدينة.

ولعل الهدف من زعمهم أن السورة مكية استناداً إلى هذه الأدلة الواهية هو إلقاء الشبهة حول نزولها في علي «عليه السلام» في هذه المناسبة الجليلة، جحوداً منهم لهذه الفضيلة العظيمة، التي أشبهت غزوة بدر، وبني قريظة، وخيبر..

الثاني: إن هذه السورة كما يقتضيه ظواهر آياتها تقسم بخيل المجاهدين في سبيل الله. وما يكون منهم تجاه أعداء الله..

وإنما أذن بالجهاد بعد هجرة الرسول من مكة إلى المدينة.. إذ لم يكن للمسلمين في مكة حول ولا قوة، بل كانوا يُعذَّبون، وقد قتل بعضهم تحت التعذيب، كسمية وزوجها ياسر، وكانوا يُلاحَقون في الهضاب والشعاب، حتى اضطر قسم منهم إلى الهجرة إلى الحبشة..

ولو تحدثت الآيات عن الجهاد في مكة، لجعل ذلك ذريعة لإبادتهم، وقد قتلوهم من دون الدعوة للجهاد، فكيف يكون حالهم مع وجود دعوة كهذه؟!

ثم تحدثت السورة عن موانع الجهاد وكوابحه، مثل: الشح والطمع، وحب الدنيا، فعالجتها بالتذكير بما سيواجهه هؤلاء في الآخرة من خيبة ومقت.

شأن نزول هذه السورة:

وعن شأن نزول سورة العاديات نقول:

1 ـ الرأي المعتمد: هو المروي عن أهل البيت «عليهم السلام»، من أن هذه السورة نزلت في غزوة ذات السلاسل، وسنذكر قصة ذلك.

2 ـ زعم مقاتل: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعث سرية إلى حي من كنانة، فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري.. أحد النقباء.

فتأخر رجوعهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله عنها بقوله: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**﴾»[1].

ونقول:

---

(1) بحار الأنوار ج21 ص66 ومجمع البيان (تفسير) ج10 ص422 وأسباب نزول الآيات ص305 .

أولاً: إن المنذر بن عمرو استشهد يوم بئر معونة، وكان أمير السرية. وهي قبل غزوة ذات السلاسل بزمان.

ثانياً: إن مقاتلاً متهم بالكذب، فقد قيل لأبي حنيفة: قدم مقاتل بن سليمان. قال: إذن يجيئك بكذب كثير[1].

وقال الجوزجاني: كان دجالاً جسوراً[2].

غزوة ذات السلاسل:

والنص المعتمد لهذه الرواية هو ما روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وعن الإمام أبي جعفر «عليه السلام» في عدة نصوص نذكر هنا خلاصة عنها، وهي التالية:

بلغ النبي «صلى الله عليه وآله» أن قوماً اجتمعوا في وادي الرمل ـ أو الوادي اليابس ـ يريدون أن يبيتوا النبي «صلى الله عليه وآله» في المدينة.. فأرسل النبي «صلى الله عليه وآله» إليهم أبا بكر في جماعة من المسلمين.

وكانوا قد أقاموا رقباء على جبالهم، فيرون كل جيش يقصدهم من جهة المدينة، فيأخذون حذرهم فلما خرج إليهم أبو بكر تحرزوا منه ولم يصل إليهم.

وفي نص آخر: أنهم خرجوا إليه فهزموه، وقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً.

---

(1) قاموس الرجال 10 ص224 عن ملحقات الصراح. وراجع حول كذب مقاتل: مرآة الجنان ج1 ص309 واللآلئ المصنوعة، وابن حجر، وغير ذلك.

(2) قاموس الرجال 10 ص224.

فعقد «صلى الله عليه وآله» لعمر بن الخطاب، وبعثه إليهم، فهزموه أيضاً.

فأرسل إليهم عمرو بن العاص ـ بطلب من عمر نفسه ـ فهزموه أيضاً، وقتلوا جماعة من أصحابه.

فأرسل إليهم علياً «عليه السلام»، وضم إليه أبا بكر، وعمر، وعمرو بن العاص، ومن كان معه في تلك السرية[1].

وفي رواية أخرى: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: أرسلته كراراً غير فرار، وشيَّعه إلى مسجد الأحزاب، فسار بهم «عليه السلام» نحو العراق، متنكباً الطريق، حتى ظنوا أنه يريد بهم غير ذلك الوجه، ثم انحدر بهم على محجة (أي طريق) غامضة، حتى استقبل الوادي من فمه. وكان يسير بالليل، ويكمن بالنهار.

فلما قرب من الوادي أمرهم أن يكعموا الخيل (أو يطعموا، أو يعكموا الخيل).

فعرف عمرو بن العاص أنه الفتح، فقال لأبي بكر، وعمر، ووجوه السرية: إن علياً رجل غِرٌّ، لا خبرة له بهذه المسالك، ونحن أعرف بها منه. وهذا الطريق الذي توجه فيه، فيه كثير من السباع، وسيلقى الناس من معرتها أشد مما يحاذرونه من العدو.. فأسألوه أن يرجع عنه إلى الجادة.

فراجعوا علياً «عليه السلام»، فقال: من كان طائعاً لله، ولرسوله منكم

(1) بحار الأنوار ج21 ص78 .

فليتبعني، ومن أراد الخلاف على الله، ورسوله، فلينصرف عني[1].

وفي نص آخر: إنه «عليه السلام» قال لهم: الزموا رحالكم، وكفوا عما لا يعنيكم، واسمعوا، وأطيعوا، فإني أعلم بما أصنع، فسكتوا، وسار بهم.

(وصارت السباع التي في تلك المنطقة كالسنانير)، إلى أن كبس المشركين، وهم غارون في وقت الصبح، فظفر بالرجال، والذراري، والأموال، فحاز ذلك كله، وشد الرجال في الحبال كالسلاسل.. ولذلك سميت: غزوة ذات السلاسل[2].

وفي نص آخر: فقتل منهم مئة وعشرين رجلاً، وكان رئيس القوم الحارث بن بشر، وسبى منهم مئة وعشرين ناهداً[3].

وفي نص آخر: سبى ست مئة وعشرين ناهداً[4].

وكان بين المدينة وبين مكان الغارة خمس مراحل.

وفي نفس صبيحة هذه الغارة خرج النبي «صلى الله عليه وآله» فصلى بالناس الفجر، وقرأ سورة العاديات في الركعة الأولى، وقال: «هذه سورة

---

(1) مناقب آل أبي طالب ج2 ص328 وبحار الأنوار ج 41 ص92 وج21 ص77 والإرشاد ج1 ص163

(2) الخرائج والجرائح ج1 ص168 وبحار الأنوار ج21 ص77.

(3) بحار الأنوار ج21 ص84 وتفسير فرات ص593 .

(4) البرهان (تفسير) ج5 ص737.

أنزلها الله عليَّ في هذا الوقت، يخبرني فيها بإغارة عليٍّ على العدو».

وفي نص آخر: فلما رجع، واستقبله النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون.. قال له: «لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بملأ من الناس إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك»[1].

وفي نص آخر: أنه «عليه السلام» لما بصر بالنبي «صلى الله عليه وآله» ترجل عن فرسه وأهوى إلى قدميه يقبلهما.

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: اركب، فإن الله تعالى ورسوله عنك راضيان. فبكى «عليه السلام» فرحاً.

وفي رواية أخرى: أن الذين أخذوا الراية قبل علي «عليه السلام» هم أبو بكر، وعمر، وخالد.. وأنه «عليه السلام» نزل بأصحابه أسفل جبل، كان بينه وبين القوم، وأمرهم أن يكعموا دوابهم، فلما كان السحر أمرهم، فطلعوا الجبل، وانحدروا على القوم، فأشرف عليهم.

وقال لأصحابه انزعوا عكمة دوابكم، فشمَّت الخيل ريح الإناث، فصهلت. فسمع القوم صهيل الخيل، فهربوا، فقتل وسبى، ونزلت سورة «العاديات» على النبي «صلى الله عليه وآله» ثم جاءته البشارة.

---

(1) الإرشاد للمفيد ج1 ص164 و 165 وبحار الأنوار ج21 ص77 – 79 وراجع ص83 و 84 وتفسير فرات ص406 و 407 والبرهان (تفسير) ج4 ص498 والمستجاد من كتاب الإرشاد ص103 وكشف الغمة ج1 ص203 و 231.

وفي رواية القمي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أن الذين هاجمهم «عليه السلام» كانوا اثني عشر ألف فارس، وقد تعاهدوا وتعاقدوا أن يموتوا كلهم أو يقتلوا محمداً وعلي بن أبي طالب.

وذكرت: أنه «صلى الله عليه وآله» أرسل إليهم، أبا بكر في أربعة آلاف. فسار بأصحابه سيراً رفيقاً. فلما وصل إليهم تهددوه، وأخبروه: أنهم إنما يريدون محمداً وعلياً فقط.

فأمر من حضره بالرجوع، فرفضوا، لكنه أصر عليهم حتى رجع وأرجع من معه.

ثم أرسل «صلى الله عليه وآله» عمر، فصنع كما صنع أبو بكر.

فأرسل «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام»: فسار بأصحابه سيراً عنيفاً، حتى خافوا أن ينقطعوا من التعب، وتفنى دوابهم..

فطمأنهم «عليه السلام»، وبشرهم بالنصر، كما قال له رسول «صلى الله عليه وآله».

ثم سار حتى بلغ مقصده، فأخبرهم بنفسه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، ثم قالوا: موعدنا غداً ضحوة، وانصرفوا، فلم يجبهم «عليه السلام».

ثم أمر «عليه السلام» أصحابه: أن يحسنوا إلى دوابهم تلك الليلة، وأن يقضموا، ويسرجوا.

ثم أغار على العدو بعد صلاة الصبح، ونصره الله تعالى عليهم نصراً موزراً، ولم يصب من أصحابه سوى رجلين.

وذكرت الرواية: أنه «صلى الله عليه وآله» خرج لاستقبال علي «عليه السلام» في جميع أهل المدينة، حتى لقيه على أميال من المدينة[1].

ونقول:

قد بحثنا هذه الغزوة بشيء من التفصيل، في الجزء الخامس من كتابنا: الصحيح من سيرة الإمام علي «عليه السلام».. فمن أحب الاطلاع على ما كتبناه، فعليه بمراجعة ذلك الكتاب.

غير أننا نشير إلى أن ذكر خالد بدل عمرو بن العاص في بعض الروايات يثير احتمال أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» قد عقد لخالد أيضاً، وسيَّره إليهم، فجرى له نفس ما جرى لهم، فيكون «صلى الله عليه وآله» قد استنفد جهود جميع الذين كان لهم اهتمام بنيل المقامات، وكان لهم محبون يسعون لمنحهم أوسمة كان غيرهم أحق منهم بها..

ولا نريد أن نحتمل أن الرواة قد صحَّفوا بين اسمي عمرو بن العاص وخالد، فإن التصحيف لا مبرر له هنا، إذ لا تَشَابه بين الكلمتين في التلفظ، ولا تشابه بينهما ولا تقارب في رسم الخط، كما هو الحال في كلمتي قوس، وفرس، أو قبة وقتة، واثنان وابنان، وموج وفوج.

كما لا تقارب بين مخارج الحروف، كما هو الحال بين الظاء والذال، والطاء، والتاء.

---

(1) تفسير فرات ص601.

وقفات مع النصوص المتقدمة:

نستفيد من هذا النصوص التي تقدمت عن غزوة ذات السلاسل أموراً كثيرة، نوجزها كما يلي:

1 ـ لقد أرسل النبي «صلى الله عليه وآله» ثلاثة قادة، أو أربعة قبل أن يرسل علياً «عليه السلام»، وهم: أبو بكر، وعمر، وقد منحه النبي «صلى الله عليه وآله» وصف الإخوة لأبي بكر، وعمرو بن العاص.. وذكر في بعض الروايات خالد بن الوليد أيضاً.

وكلهم قد رجعوا مهزومين، وخائفين مرعوبين «يُجَبِّنُ بعضهم بعضاً»، كما في بعض النصوص، وهو نفس التعبير الوارد في غزوة خيبر أيضاً.

فأرسل علياً «عليه السلام»، فكان الفتح على يديه.. مع أن ذلك كله قد حصل في نفس المكان، ونفس الزمان، ونفس العناصر، ومع نفس العدو، ونفس الطريقة، ونفس الخطاب والجواب.

2 ـ يلاحظ: أن القادة الذين أرسلهم النبي «صلى الله عليه وآله» لملاقاة العدو كلهم قد تعاقبوا على قيادة جماعة واحدة، وقد فشلوا جميعاً، وهُزموا وجماعتهم معهم عدة مرات، وحين تولى علي «عليه السلام» قيادة نفس هذه الجماعة من دون زيادة ولا نقيصة، سجل نصراً عظيماً. كما رأينا.

وهذا أمر عجيب: أن تهزم جماعة بعينها عدة مرات مع عدة قادة، بالرغم من رفقهم بها، ثم تنتصر أعظم نصر حين وجدت القائد الحازم والعارف بالأمور، والواثق بربه ونبيه.. مع أن كل ذلك قد حصل خلال شهر أو شهرين.. ولم يتخلف الزمان، ولا المكان، ولا العدو، ولا غير ذلك.. وقد وجهت إليها

نفس الوصايا، وصدرت إليها نفس الأوامر.

كما أن ما جرى لها مع القوم كان متشابهاً أيضاً، وكانت النتيجة نفسها، وهي الرعب والهرب والخيبة.

ولو أن الهزيمة حصلت مرة واحدة، لأمكن تبريرها بأنها كبوة جواد، أو غفلة عارضة، أو غير ذلك.. لكن توالي الهزائم ثلاث مرات أو أربعاً قد سحب الذرائع، لاسيما مع قسوة عليٍّ وحزمه، ورفق الآخرين، بل هو قد واجه كبار القوم بحزمه هذا، فما بالك بغيرهم.

3 ـ إن هذا يعطي: أن مسؤولية الهزيمة في المرات السابقة تقع على القادة بالدرجة الأولى، وأن النصر الذي حصل كان سببه أيضاً القائد. وأما العناصر، فإنهم إذا استفيد منهم بصورة صحيحة ينتصرون، وإذا استفيد منهم بصورة خاطئة يفشلون.

ويلاحظ: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد فعل مثل ذلك في خيبر، وبني قريظة أيضاً، حيث أرسل أبا بكر ثم عمر، ففشلا، ثم أرسل علياً، ففتح الله على يديه.

4 ـ ما تقدم يفيد: أنه لا يجوز تحميل العناصر مسؤولية الهزيمة قبل التحقيق في الأمر، إذ كما أن النصر قد يكون بسبب القائد، ومعه العناصر، قد يكون الأمر بالعكس..

5 ـ إن توالي الهزائم عدة مرات لنفس المجموعة يجعلها في موقع الصدمة والإحباط، ويجعل علاج الآثار صعباً.

6 ـ إن استبعاد المجموعة واستبدالها بغيرها يكرس شعورها بالإحباط

والفشل.

7 ـ إن علاج آثار الهزائم يمكن أن يكون بتحصيل النصر للمهزوم، لا باستبعاده، وإما بإفهامه أن العيب ليس في الجماعة، وإنما في قادتها، من حيث علاقتها بهم، وخبرتها الحربية، ومعرفتها بالمسالك، وسياستها مع عناصرها، ونظرتها إليهم، وإلى قدراتهم، وآمالهم.

ولكن السياسة الحربية لعلي «عليه السلام»، وعزمه، وخبرته، وثقته بربه، وبغير ذلك قد جعل كل إعدادات الأعداء ركاماً وحطاماً.

وهذا ما فعله النبي «صلى الله عليه وآله» وعلي «عليه السلام» في هذا المورد وغيره. كما في خيبر، وغزوة بني قريظة.

8 ـ إن الهزيمة المتكررة لجماعة بعينها تزيد من جرأة العدو عليها، وشراسته ضدها. فلا بد من زيادة قدراتها لمقاومة هذه الشراسة.

9 ـ إذا كان النصر يكون بالقائد أكثر مما يكون بالعناصر، فلا بد من إعداد قادة أكفاء ذوي خبرات قيادية عالية ومميزة، ولا تكفي الخبرة القتالية وحسب، ولا تكفي الشهادات الجامعية بالكفاءة في العلوم العسكرية، كما لا تكفي الأوسمة التي تمنح.. إلا بعد دراسة مبررات منحها.

10 ـ إن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يرسل علياً «عليه السلام» مع القادة الذين سبقوه، فعادوا منهزمين. بدليل ما ورد، من أنه «صلى الله عليه وآله» لم يؤمِّر أحداً على علي «عليه السلام» طيلة حياته.

ولكنه «صلى الله عليه وآله» حين أرسل علياً ـ كقائد ـ جعل القادة السابقين

تحت إمرته، وأرسلهم معه، ليروا كيف أن الله تعالى ينصره على أعدائه.. لكي تكون الأمور واضحة، وتتطامن النفوس الجامحة.

11 ـ ينبغي أن يراعى في القائد مواصفات، نذكر منها:

ألف: الشجاعة والجرأة.

ب: والقدرة على منح عناصره الثقة به، والمحبة له.

ج: وأن يمنحهم هو محبته وثقته.

د: وأن يشعروا بعطفه، وأنه يؤلمه ما يؤلمهم، ويهمه ما يهمهم.

هـ: وأن تكون لديه القدرة على معالجة حالات الإحباط لدى عناصره.

و: وشحنهم بالقوة الروحية، مثل: الثقة بالله، والتأسي بالرسول، والأئمة، والارتباط به تعالى وبهم، والتسليم له ولهم، والرضا بما يرضيهم، لكي يتحول ضعفهم إلى قوة، وهزيمتهم إلى اندفاع، وقلقهم إلى سكينة وثبات.

ز: وأن يجعل عناصره يتلمسون فيه هذه المعاني، وأنه:

1 ـ قوي.

2 ـ شجاع.

3 ـ خبير، وبصير، وعارف.

4 ـ ثابت.

5 ـ واثق، ومطمئن.

6 ـ مدير.

7 ـ مدبر.

فإن تلمسهم كل هذه المعاني فيه لا بد أن يترك آثاراً إيجابية فيهم.

في الطريق إلى العدو:

لقد أمر النبي «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» حين مسيره: أن لا تفارقه العين. مما يعني: أن عيونه «عليه السلام» كانوا يكشفون له الطرق والمسالك، ويخبرونه بكل ما يرونه فيها، ليضمن عدم وصول خبر مسيره إلى الأعداء ولكي لا يقع في كمين.

ومما جرى في هذا المسير نلاحظ:

1 ـ أن علياً «عليه السلام» حين سار بالمقاتلين نحو العدو لم يقصدهم مباشرة، بل سار إلى جهة العراق حتى ظن الذين معه أنه لا يقصد تلك الجماعة.. وبذلك يكون «عليه السلام» قد ضمن عدم قدرة عيون الأعداء، والمتعاملين معهم من إخبار الأعداء بأن علياً يقصدهم.. لقيام احتمال أن يكون قاصداً جماعة أخرى أمره النبي «صلى الله عليه وآله» سراً بقصدها.

2 ـ إن ذلك يدل على أنه «عليه السلام» لم يُطلع أحداً من أصحابه على مقصده الحقيقي، وأنهم لم يقدروا على انتزاع أية إشارة بقول أو فعل على خطته..

مما يعني: أنه لا بد للقائد من أن يبالغ في التكتم على نواياه، وأن لا يبوح بخطته إلا لشركائه في الجهد الحربي، مع الاقتصار على ما يعنيهم دون سواه.

وهذا هو التطبيق العملي للقاعدة المروية عنه «عليه السلام»: «إن لكم

عليَّ أن لا أخفي عنكم سراً إلا في حرب»[1].. فإن للعدو جواسيسه الذين كانوا يخبرونه بكل ما يجري.. وهناك خونة، وهناك من يسعون لإفساد تدبيره، كما ظهر من موقف عمرو بن العاص، وتحريكاته الخبيثة في ذات السلاسل.

3 ـ إنه «عليه السلام» قد سار بمن معه في مسالك وعرة، وصعبة.. فأدرك عمرو بن العاص: أن علياً سوف يظفر بالأعداء، فحاول التشويش عليه، وتأليب من معه ضده. وذلك حسداً منه له وبغياً.

فاتخذ «عليه السلام» من الذين حاولوا التشويش، وتحريك الناس موقفاً حاسماً وحازماً، فأمرهم:

أولاً: أن لا يتدخلوا فيما لا يعنيهم.

ثانياً: أخبرهم أنه أعلم بهذه الطرق منهم.

ثالثاً: أخبرهم بأنه يعلم ما يعلمون، وما لا يعلمون.

رابعاً: أمرهم أن يطيعوا ويلزموا رحالهم، ولا يتدخلوا فيما لا يعنيهم، أو أن يتم الاستغناء عنهم.. وعلى من يرفض الالتزام: أن يرجع من حيث أتى.

فإن المسموح به: هو إبداء الرأي لأصحاب القرار، دون سواهم، وينتهي الأمر عند هذا الحد.

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص79 والأمالي للطوسي ج1 ص221 و (ط دار الثقافة ـ قم) ص217 وصفين للمنقري ص107 وبحار الأنوار ج33 ص76 و 469 وج72 ص354 وميزان الحكمة ج1 ص124 وأعيان الشيعة ج1 ص463 والمعيار والموازنة ص104 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج17 ص16.

ويعطينا هذا الإجراء الحاسم:

ألف: وجوب التصدي للذين يحاولون إثارة البلبلة، ويدعون الناس إلى التمرد، ويثيرون الشكوك والشبهات، ولو اتخذوا لباس الناصح المشفق.

ب: يجب أن يقتصر التصدي على عزل مثيري الشغب عن غيرهم، وفرض الإقامة عليهم في الأماكن المخصصة لهم.. أو مغادرة المعسكر.

ج: لا يجوز السماح للعناصر بالتدخل فيما لا يعنيهم. وكون الأمر لا يعنيهم إدانة قانونية لهم، فلا مجال للسماح به.

د: دل هذا الموقف: أن على القائد أن يتعامل مع هذا النوع من الناس بحزم، وبسرعة ولا يفسح المجال للنقاش والأخذ والرد، وتداول الموضوع أبداً..

هـ: إن هذا يعطي: أن على الجميع أن يلتزموا بأوامر القائد، والكون في المواقع التي يحددها لهم.

و: إن إفساح المجال للتشكيك في قرارات القيادة يضعف الثقة بها، وبقراراتها، وأهليتها.

ز: إذا عرف القائد: أن المثيرين للشغب والشبهات هدفهم إضعاف هيمنته، وإظهار علمهم وجهله، وقوتهم وضعفه.. فعليه أن يعلن بأنه يتحمل المسؤولية عما يقدم عليه، وان ضمانته هي علمه بما علموا، وبما جهلوا. وهذا يفقدهم ذريعتهم للتضليل، وإثارة الشبهات..

ح: على القائد أن يدرس طبيعة عناصره ويعرف ميولهم وتوجهاتهم وسوابقهم التي لها ارتباط بالمهمات الموكلة إليهم..

4 ـ على القائد أن يكون عارفاً بجغرافيا منطقة العمليات، ومسالكها، وجبالها، ووديانها وكهوفها، وأنهارها، و.. و.. بصورة صحيحة ودقيقة، وأن يعرف أيضاً: المواضع التي يمكن أن يستفيد منها العدو لزرع الكمائن، أو لوضع العيون على المسالك الفردية والجماعية.

5 ـ على القائد أن يضع في حسابه كل الاحتمالات التي يمكن أن يلجأ إليها العدو في تدبيراته، وفي استفادته من قدراته القتالية، ووسائله، وأن يعد العدة لمواجهة ذلك كله.

6 ـ إنه «عليه السلام» بسلوكه في المسالك الوعرة قد ضيع على عيون العدو فرصة كشفه من مواضع رصدهم للمسالك التي يشرفون عليها من رؤوس الجبال.

7 ـ إنه «عليه السلام» كان يكمن النهار، ويسير في الليل، فدل ذلك على لزوم التخفي.

8 ـ أمر علي «عليه السلام» أصحابه ليلة الغارة بثلاثة أمور، هي:

أولاً: أن يحسنوا إلى دوابهم، بإنزال أحمالها عنها، ووضعها في مكان مناسب يقيها الحر والبرد، وإظهار الرفق بها، والمحبة لها بالمسح على سوقها وأعناقها.. فإن للحيوانات نفوساً ومشاعر، وهي تحب وتبغض، وتألف وتحقد، كما نراه في الإبل، التي تتحين الفرص لتنتقم لنفسها ولو بعد أيام، ممن أساء إليها.. والكلب أيضاً يدافع عن صاحبه وأهل بيته، ويخضع لهم، ويدفع ويهاجم كل غريب يقترب منهم.. وربما مات في هذا السبيل، فليس الحيوان مجرد آلة تتحرك حسبما يريد صاحبها، وخصوصاً الخيل الأصيلة،

فإن لها رفقاً به، ومحبة له يعرفها أصحابها منها.

وقد وصفت الروايات ما فعله جواد الحسين حين استشهاد الإمام، وحديث الهدهد، وذكائه، وفهمه، ومشاعره، وإيمانه، والنملة في القرآن شاهد آخر على ما نقول.

ثانياً: أن يقضموا دوابهم، بتقديم العلف لها، فإن ذلك يعطيها قوة ونشاطاً، ورضى، وسكينة، ويسلس قيادها، فلا تتمرد على صاحبها، ولا تعانده حين تصادف بعض ما تسد به جوعتها.

وربما يستفاد من هذا ضرورة النظر في حاجات آليات العمل، ورفع نقائصها، وتعاهدها بكل ما يزيد في جودتها.

ثالثاً: أن يسرجوا دوابهم، إعداداً لها للحركة بمجرد الحاجة إلى ذلك، فلا ينشغل المقاتل بإصلاح حال دابته، في اللحظة التي يحتاج فيها إلى دفع عدوه، أو إلى مباغتته.

وإسراج الدابة يهيئ الدابة نفسها إلى العمل، ويخرجها من حالة الاسترخاء إلى الاستعداد.. بل إلى أشد حالات النشاط والحركة، فيسهل عليها أن تبادر إلى الحركات السريعة في أية لحظة، ولا يوجب ذلك لها إرباكاً، ولا تحصل منها أية اختلالات، ولا يظهر منها أي ضعف، أو عدم مرونة.

ونستفيد من ذلك أيضاً:

ألف: ضرورة تهيئة وإعداد وسائل الحرب مسبقاً.

ب: أن تكون هذه الوسائل في أفضل حالاتها.

ج: أن يتفقد مدى جودتها وفاعليتها، ويتعرف على الفاسد، أو ما يحتاج إلى ترميم وإصلاح منها.. فيبادر إلى إصلاحه، أو استبداله..

د: أن يبلغ إعدادها وتأهيلها مراحله النهائية لتصبح صالحة للاستعمال الناجز.

هـ: إن التأخير في الإعداد قد يواجه بظروف تمنع منه في اللحظات الأخيرة، أو تؤدي إلى عدم اكتماله، أو إلى عدم الدقة فيه، فتبقى فيه فجوات، أو أخطاء واختلالات.

9 ـ إنه «عليه السلام» حين قرب من الوادي الذي فيه العدو أمر أصحابه أن يكعموا الخيل، لأن الأصوات هي التي تدل على أصحابها في الليل، فالمطلوب هو: أن لا تصهل ولا تحمحم الخيل قبل أن تشرف على العدو، لكي لا يسمع العدو صهيلها، فيحترس منهم.. وللأصوات في الليل مدى أوسع وأبعد.

مما يعني: أنه لا بد من التسلل إلى المواقع المتقدمة مع العدو بمزيد من الحيطة والحذر، على أن لا تصدر عنهم الأصوات ذات الدلالة الواضحة على وجودها، ومعرفة أحوال مصادرها، وتحديد خصوصياتهم، وصهيل الخيل، وحمحمتها من هذا القبيل..

فيجب الاستعاضة عنه بأصوات غامضة ومبهمة وتضليلية، مثل: صوت ضبح الخيل الذي هو صوت أجوافها بسبب شدة العدو، حيث الكعام موضوع في أفواهها، الذي لو سمعه العدو قد تذهب الأوهام به في كل اتجاه.. ويكون وسيلة تضليل له.

ثم إنه حين أشرف على القوم أمرهم: أن ينزعوا عنها كعامها، لكي تصهل في لحظة كان العدو فيها نائماً، فيستيقظ مذعوراً، ويأخذه الرعب الذي هو من أعظم عوامل النصر..

والكعام: هو الحديدة التي توضع معترضة في فمها لتمنعها من الصهيل والحمحمة..

والصهيل: صوت الفرس.

والحمحمة: صوت الفرس حين يقصر في الصهيل، وقد استعان بنفسه.

10 ـ وحين بلغ علي «عليه السلام» بمن معه إلى أماكن قريبة من الأعداء، واستقر بمن معه حيث يريد، دعا الأعداء إلى ترك القتال، وإلى الإيمان بالله ورسوله. فأبوا إلا القتال، وأصروا على قتل النبي والوصي، وحددوا هم ساعة البدء. فأصبح له الحق بقتالهم..

11 ـ إن علياً «عليه السلام» لم يظهر لهم موافقته على تحديد ساعة الصفر، بل اكتفى بالرجوع إلى موقعه الأول.

وهذا يعطي: أن العدو إذا أصبح محارباً، لم تعد لقراراته قيمة، إلا إذا صرح الطرف الآخر له بالموافقة عليها.

12 ـ وحيث لم يستجب «عليه السلام» لرغبة عدوه، فقد أعدَّ واستعدَّ له، وهاجمه في اللحظة التي اختارها هو «عليه السلام».

13 ـ لا يحق للعدو أن يعترض على هذا، بأن يدَّعي نقض العهد أو الاتفاق، إذ لم يكن هناك عهد، بل هو اقتراح من الأعداء، ولم يأتهم جواب

عليه.

14 ـ إن ما قاله «عليه السلام» في جوابه على تهديد المشركين يدلنا على لزوم رعاية ما يلي:

ألف: لا ينبغي تهديد العدو بالحرب، بل ينحصر الرد على تهديده بها، بالتأكيد على العزم على رد العدوان.. وقد نهى أمير المؤمنين «عليه السلام» ولده الإمام الحسن «عليه السلام» عن أن يدعو أحداً إلى مبارزة، ولكن إذا دعي إليها، فعليه أن يجيب، فإن الداعي باغ، والباغي مصروع.

ب: يجب عدم تهديد العدو بما نملك من قوة ذاتية، بل نرد على تهديده: بأننا نستعين بالله تعالى عليه، وبملائكته وبالمسلمين. أي أن علينا أن نفرض عليه هذا الغيب الذي نؤمن به.. كما أن علينا أن نشرك معنا جميع المسلمين، ليعلم أننا ننطلق من قضية إيمانية، عقائدية يشاركنا فيها، وفي جهدنا من أجلها، وفي التضحيات في سبيلها كل من يحمل هذه العقيدة، ويدين بدين الإسلام.

والعدو يعلم: أنه إنما يقاتلنا بمن يرى مصلحته الدنيوية في قتالنا، وأما الآخرون فلا يضمن مشاركتهم، أو ليس لديه ما يضمن أن يكونوا يرون أن قتالنا يجلب لهم نفعاً. أو يدفع عنهم ضراً.

ج: ينبغي التركيز على أن كل ما لدينا من قوة وحول فهو من الله، فربنا يجبنا، وهو راع وحام لنا، فليعودوا هم إلى أنفسهم ليروا إن كان حالهم يشبه حالنا، أو أنهم متروكون لجهدهم، وقدراتهم الذاتية.

وقد قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى، ولا عزى لكم.

فأجاب «صلى الله عليه وآله»: الله مولانا، ولا مولى لكم.

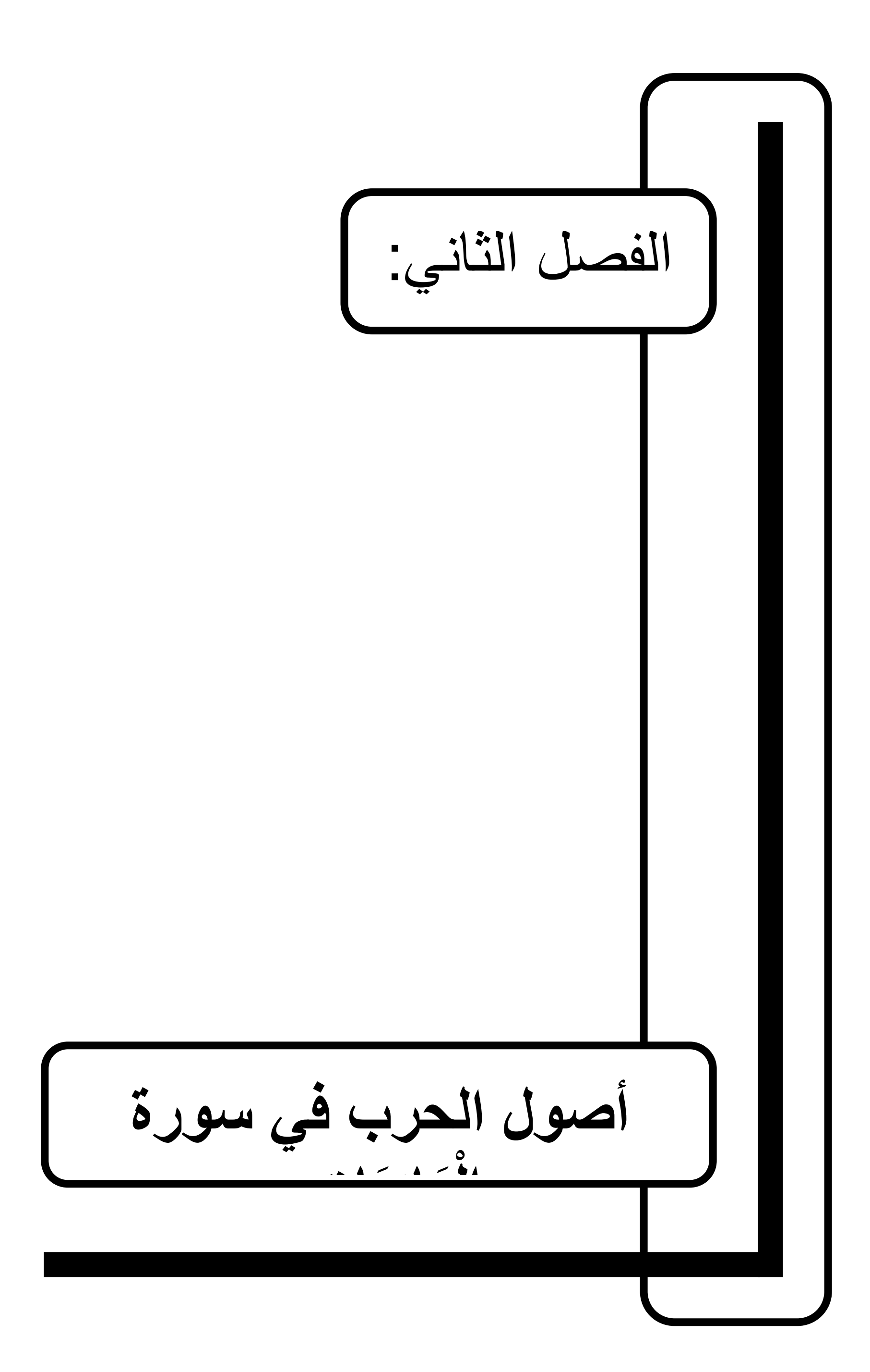
د: علينا أن نذكِّر العدو بما لا يستطيع إنكاره من هذه الرعاية الربانية، والنصر الإلهي الذي حبانا الله تعالى في العديد من المناسبات.

هـ: على القائد أن يثني على سائر من ساهم في تحقيق الإنجازات، وقدم التضحيات من سائر المسلمين، من حضر منهم، ومن غاب.. فإن هذا يسهم في إذكاء الرغبة لديهم، بأن يمنحه الله النصر، وأن يشاركوه في الثواب والأجر، ويكون موضع اعتزازهم، والفخر.

و: إن ربط الأمور بالله ورسوله، واعتبار جهدهم امتثالاً لتكليف إلهي يمنح المجاهدين الصبر، رغبة في الثواب والأجر.

أما من يقاتل من أجل مكسب دنيوي، فهو لا يريد أن تبلغ الأمور حد التضحية بالنفس، أو المال أو الولد.. لأنه يقاتل من أجل حفظ ماله وبقاء ولده، وصون نفسه.

15 ـ في غزوة مؤتة أمر النبي «صلى الله عليه وآله» المقاتلين بعدم التعرض للديار والأشجار.. وعلينا نحن أن نصدر تعليماتنا لعناصرنا أن لا يتعرضوا لشيء من ذلك بسوء.



الفصل الثاني:

أصول الحرب في سورة

أصول الحرب:

قال تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[1].

والكنود: هو الكفور.

ونقول:

تضمنت آيات سورة العاديات بياناً لأصول الحرب التي تنتهي بالنصر، وقد نزلت هذه الآيات في غزوة ذات السلاسل كما تقدم.

وسنحاول هنا التركيز على خصوص الآيات، من دون توسع في شرحها، مع الإشارة الموجزة إلى التطبيق العملي، الذي تجلى على يد علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، حين تسنح لنا الفرصة لذلك، فإن بقي شيء من سيرة علي «عليه السلام» في هذه الغزوة يحتاج إلى بيان.. فإننا سنشير إليه بعد الانتهاء من الكلام حول الآيات الكريمة المشار إليها، فنقول:

إذا أقسم الله بشيء دل ذلك على محورية ذلك الشيء في النطاق الذي هو فيه، فقد يكون كونياً كالشمس، والقمر، أو زمانياً، كالليل، والضحى والفجر،

---

(1) الآيات 1 ـ 6 من سورة العاديات.

وقد تكون محوريته في الدين، والحياة كالقرآن، أو في إقامة الدين، وحفظ النبي والوصي، والمسلمين كالعاديات، وغير ذلك..

ولذا نرى: أنه تعالى أقسم في سورة العاديات بـ «العاديات» التي هي الخيل التي تعدو في سبيل الله لحفظ النبي والوصي، ودين الله، وجهود الأنبياء، فقد حققت غرضها هذا، وأثبتت محوريتها، وعظيم أثرها على مستوى البشرية في أدوار التاريخ كلها.

ولنبدأ الآن بذكر الآيات آية آية، وذكر ما نستفيده فيها. قال تعالى:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا):

قلنا: إن الله أقسم بالخيل التي تعدو ـ أي تركض ـ في الجهاد في سبيل الله، والضبح: هو صوت أنفاسها الخارج من أجوافها، وليس بصهيل، ولا حمحمة، وقد دلت الآية على بعض أصول الحرب:

الأول: تحديد الهدف الذي يراد ضربه بدقة متناهية، ومعرفة خصوصياته، باستطلاع دقيق، وأن يكون الهدف محورياً فيما يرتبط بحسم الأمور، وأثر هذا الحسم في إسعاد البشرية كلها.. فإن ذلك يزيد من اندفاع المجاهدين، ومن رغبتهم في القتال.

والهدف هنا: هو اثنا عشر ألف مقاتل، يريدون قتل أساس الإسلام. أعني النبيَّ، وعلياً «صلوات الله وسلامه عليهما».

والقسم بالعاديات بيان للهدف، وقيمته البالغة.

الثاني: اعتماد أسلوب الهجوم على العدو، وليس مجرد الدفاع، بمعنى

أن ننتظر حركته، ثم نعمل على إفشالها ودفعها، فإن هذا غير سديد.. لأن المطلوب هو الهجوم، ولو بهدف الدفاع، فهناك اصطلاحان للهجوم:

أولهما: المراد بالهجوم: هو الابتداء بالقتال.. والمراد بالدفاع: رد هجوم العدو فقط. وهذا ليس مراداً هنا.

أولاً: لعدم جواز البدء بالقتال قبل الاحتجاج وبيان الحق.

ثانياً: كان النبي «صلى الله عليه وآله» يهاجم عدوه بعد إصرار العدو على الحرب، وكان يغزو العدو المعلن بالحرب قبل غزو العدو له.

الثاني: أن يكون المطلوب هو الدفاع بطريقة هجومية، أو يجب الهجوم بهدف الدفاع، ولذا كان «صلى الله عليه وآله» يقول: اغزوهم قبل أن يغزونا. وهذا هو ما نريده هنا.

الأصل الثاني: الذي أشارت إليه الآية: هو السرعة في الحركة، أي أن المطلوب هو:

1 ـ المسارعة نحو المقصود إلى حدِّ العَدْو، فلا يكتفى بالمشي العادي والرفيق.

2 ـ يجب أن تصل السرعة إلى أقصاها ـ بدليل قوله «ضبحا» التي هي صفة للخيل. أي تضبح ضبحاً، وهو أن يعلو صوت أنفاسها من أجوافها.

3 ـ يجب ان تصل السرعة إلى أقصاها منذ اللحظات الأولى.

4 ـ أن يكون الهجـوم قبل تجمع مقاتلي العدو، وقبل استقرارهم في مواقعهم القتالية.

5 ـ اعتماد السرعة في مختلف التحركات، فالمطلوب هو عدم الاستقرار،

والانتقال السريع في كل اتجاه..

الأصل الثالث: أن هذه السرعة تمهد لتبلور عنصر المباغتة للعدو الذي هو من أهم الأصول الحاسمة في الحرب.

وسيأتي: أن الأعداء قد ساعدوا على توفير هذا العنصر حين حدّدوا زمان الحرب بصباح اليوم التالي.. مع أن الصباح يمتد من طلوع الفجر إلى قبيل الظهر، وقد اختار «عليه السلام» ساعة الفجر الأولى ليفاجئهم بها، ولم يكن «عليه السلام» مسؤولاً عن تفريط عدوه وغبائه.

ومن فوائد السرعة والمباغتة ما يلي:

ألف: تُضعضع العدو.

ب: تُربكه، وتفقده السيطرة، وتستلب منه إمكانية معرفة من أين حصل ويحصل الهجوم، وإمكانية اتخاذ أي قرار، بل يصير يتعامل بردات الفعل، تبعاً لفعل المهاجمين.

ج: إنه يفقده الوضوح في مدى حركته وجدواها، ويعجز عن تحديد نتائجها.

د: يصبح زمام المبادرة بيد المهاجمين، ويصير هو أسير خياراتهم.

هـ: تفقد عيون العدو القدرة على الرصد المجدي.

و: أن يسبق الجيش المهاجم الأخبار إلى العدو، وهذا يمثل صدمة نفسية قوية للعدو.. لاسيما مع ملاحظة: أن الطرق التي سلكها «عليه السلام» قد حجبت عن العدو أية معلومة، بل ربما بلغته معلومات تقول: إن علياً «عليه

السلام» لم يكن يقصده، بل قصد بلاد العراق.

ز: إن أول كلمة في هذه السورة هي القسم بالعاديات، بما هي مظهر للسرعة القصوى، وقد رأينا: أن الذين أرسلهم النبي مرة بعد أخرى كانوا يسيرون بمن معهم سيراً رفيقاً، وفي مواضع سهلة، وطرقات ممهدة، وكان عليٌّ فقط هو الذي سار بمن معه سيراً عنيفاً، وقوياً وسريعاً، وفي مناطق صعبة ووعرة، ومخيفة.

وقد جاءت الآية المباركة لتعظِّم وتثني على هذه السرعة التي استحقت أن تكون مورداً للقسم الإلهي، لعظيم بركاتها، وجليل أثرها في تحقيق غاياتها.

إن السير الرفيق الذي ساره الذين سبقوا علياً بأصحابهم كان يهدف إلى راحة المقاتلين، ويعطيهم الفرصة للتلذذ بالمناظر التي يمرون بها، من جبال وأحجار، وزراعات وأشجار، والتلذذ بالهواء الساري، والماء الجاري، والأطعمة، **والتماس الراحة بالنوم تارة، وبالمسامرات أخرى..**

الأمر الذي يزيد من تعلقهم بالحياة، وإخلادهم إلى عيشها الرغيد في العمر المديد.

فكانت نتيجة هذا الرفق هو الخنوع، والرهبة، والخضوع للخوف، والهروب المزري.. ولولا تدارك علي «عليه السلام» للموقف بعد ذلك، لحلَّت الكارثة بالإسلام وأهله.

وأما السير العنيف الذي اعتمده علي «عليه السلام»، فقد سبق الأخبار إلى العدو، وشغل من معه عن لذائذ الدنيا، وقلل من قيمتها وأهميتها، وجعل

كل همهم هـو معالجة ما يواجهونه من تعب ونصب، والسعي للإسراع في إنجاز المهمة الموكلة إليهم.

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا):

1 ـ دلت هذه الآية أيضاً، على أن المطلوب: هو الوصول إلى الهدف المحدد، دون أن يشعر العدو، وهذا يتحقق بأمرين:

الأول: تحاشي العيون التي بثها في مختلف الإتجاهات.

ويتحقق هذا التحاشي بالأمور التالية:

1 ـ توفر الخبرة لدى قيادة العمليات بالواقع الجغرافي، ومعرفتها بالمسالك وخصوصيات الأودية والشعاب، وتقدير قدرات العدو على الاستفادة منها، وكيفيات ذلك، والمواقع التي يمكن للعدو أن يجعل العيون والكمائن فيها.

2 ـ وجود عيون تبحث عن عيون العدو وتدبيراته وكمائنه في كل اتجاه.

وهذا قد فعله عليٌّ كما أمره الرسول «صلى الله عليه وآله».

3 ـ سلوك طرق لا يبدو أنها تؤدي إلى مواضع تمركز العدو.

وهذا ما فعله عليٌّ أيضاً، حيث سلك نحو العراق، وسلك على غير طريق الجادة.

4 ـ اعتماد الساتر المصطنع، مثل إثارة الغبار الكثيف في أجواء الميدان.

5 ـ التضليل بالمؤثرات الصوتية.

وهذا هو التشويش السمعي من خلال صوت ضبح الخيل، ومن خلال إثارة الرعب بإطلاق صوت صهيل الخيل فجأة.

6 ـ التضليل بالمؤثرات البصرية.

الثاني: تضليل عيون العدو وجواسيسه.

والتخفي عن عيونه، ولو بالساتر الطبيعي ـ وهو ظلام الليل ـ والسير في الأودية غير المتوقع سلوكه فيها، ولاسيما المحاطة بالجبال التي تحجب الرؤية أيضاً.. ومن ذلك مسيره «عليه السلام» نحو العراق أولاً، فلا يستطيعون تزويد العدو بمعلومات لا يمكنهم ضمان صحتها.

وهذا ما فعله «عليه السلام» أيضاً، حيث كان يكمن في الأودية نهاراً، ويسير في الليل.. وقد أعنف في السير ليسبق الأخبار.

فلما وصل إلى قرب أولئك القوم نزل بأسفل جبل كان بينه وبين القوم، ثم سار إليهم فأخبرهم بنفسه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، ثم تواعدوا معه إلى الصباح.

ويبدو: أن الوقت كان متأخراً.. وكان من الطبيعي أن ينشر القوم عيونهم من حولهم، فلما كان الفجر أمر بأن تكعم الخيل، وأن تسرع في سيرها إلى حد العَدْو. فالسير الحثيث، والعَدْو جهد ينشأ عنه الضبح الذي هو صوت أنفاس الخيل، حين تخرج من أجوافها، وهو صوت مبهم وغامض.. وإذا سُمِع في جوف الليل، فإنه لا يدل على حقيقة ما يصدر عنه، فقد تكون أصوات سباع، أو فحيح أفاعي، أو صوت ترددات الرياح في الوديان والشعاب، أو صوت حفيف أوراق الأشجار، أو هذه الأمور كلها مجتمعة.

والإحتمال الأضعف أن يكون صوت ضبح الخيل، لأن العدو يعرف موضع نزوله «عليه السلام»، فلا يخطر على باله أن تُكعم الخيل.

أما المؤثرات البصرية، فهي قدح الشرر من حوافر الخيل، فإن هذه اللمعات النارية التي لا ترى إلا في الظلام، إذا رآها أي كان من الناس في تلك المناطق الصعبة المسالك، المنقطعة، فلا يظن أنها خيل تحمل رجالاً، وتعدو بهم، وتقدح شرر النار بحوافرها.. ولو كان ثمة رجال في الشعاب، فيفترض أن يخلدوا في الليل إلى الراحة، وأن يشعلوا نيراناً لحاجاتهم.

فهذا تضليل بصري يضاف إلى السمعي، كما قلنا.

ولو قيل: إن الحديث عن العاديات ضبحاً، والموريات قدحاً إنما هو عن حالة الاشتباك مع الأعداء بالهجوم عليهم.. لا في الطريق قبل الوصول إليهم.

فإننا نقول:

إن ذلك وإن كان غير ظاهر من الآيات، فإنها تشمل حالة الاشتباك، وتشمل حالة السلوك إليهم لمباغتتهم، ويمكن أن نتصور تطبيق الآيات على هذه الحالة، حالة الاشتباك أيضاً كما يلي:

إن المطلوب هو: أن تصاحب الهجوم مؤثرات قوية على معنويات العدو، وتكون بحيث تستثير مخيلته، لتضخيم الأحجام، بهدف تكريس الفشل النفسي لديه.. وذلك من خلال مشاركة السمع والبصر معاً في إنتاج التخيل المطلوب.. وذلك يكون بأمرين، هما:

ألف: المؤثرات الصوتية التي توحي بشدة اندفاع المهاجمين، وبالسرعة، والجهد، والتصميم المستفاد من قوله: «ضبحاً» ومعناه: صوت خروج أنفاس الخيل من أجوافها، وهي أصوات غامضة ومبهمة تصدر عن جهد يبذل،

ولاسيما إذا كان في مداه الأقصى..

ب: المؤثرات البصرية التي أشار الله تعالى إليها بقوله: «فالموريات قدحاً» وهي اللمعات النارية الخاطفة الناتجة عن اصطكاك حوافر الخيل بالحجارة، الأمر الذي يوحي من جهة بالشدة والقسوة، وبحجم الخطر الداهم، الذي سيواجهه العدو.

وهو أيضاً من الجهة الأخرى يبهج فرسان تلك الخيل، ويوحي لهم بالفتوة وبالقوة، ويرغبهم في تسريع حركتها، ويزيدهم حماسة واندفاعاً لبلوغ مقاصدهم بها.

وإنما تظهر هذه اللمعات في الليل، وفي الصباح الباكر، قبل انتشار النور.

2 ـ إن الساتر الطبيعي الذي هو الليل، كما فهم من الآية بسبب ظهور اللمعات النارية، إذا ظهرت فيه هذه المؤثرات يؤدي وظيفتين:

إحداهما: حجب الرؤية عن العدو، فلا يتمكن من تقدير الموقف.

والثاني: هو يطلق العنان للمخيلة لتضخم الأمور، وتزيد الرعب، والخوف لدى العدو..

وللساتر دوره الحساس في جميع مراحل الحرب، ويستفاد منه فيها في أغراض مختلفة، سواء أكان ساتراً طبيعياً كالليل، والغابات، والكهوف، والوديان، أو مصطنعاً، مثل إثارة النقع (الغبار) في النهار من خلال سرعة حركة الخيل.. وفي أيامنا هذه يستفاد من القنابل الدخانية، أو من الدخان الذي تطلقه بعض الآليات المعدة لأمثال هذه الأمور.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا):

وقد تضمنت هذه الآية الإشارة إلى أمرين أيضاً:

الأول: المفاجأة بالهجوم. وهذا أصل مهم من أصول الحرب.

الثاني: تحديد وقته بأنه وقت الفجر..

فبالنسبة للمفاجأة: وأخذ العدو على حين غرة، يلاحظ:

1 ـ أن المباغتة تؤثر على معنويات العدو، تهزمه نفسياً. والهزيمة النفسية له من أهم عوامل النصر عليه.

2 ـ المفاجأة تفقد العدو خياراته، ويصبح تابعاً لخيارات مهاجمه.

3 ـ وكما يفقد زمام المبادرة، فإنه أيضاً يفقد الإبداع والخلاقية، ويصير بانتظار الفعل من المهاجم، لكي يبادر إلى رد الفعل، ويدفع غائلته عن نفسه.

4 ـ المفاجأة تربك العدو، وتوقعه في المتناقضات، وقد يشرع في أمر، ثم يتركه إلى غيره.

5 ـ المفاجأة تنقل العدو إلى الأعمال الاحترازية التي قد تختلف في ماهياتها، واتجاهاتها، وفي حاجاتها وتحتاج إلى إعداد، وإلى إمكانات أكبر، واستعدادات أكثر..

6 ـ وتزداد أعباء هذا التحرز بمقدار سرعة التحرك وتنوع الإمكانات الهجومية لدى المهاجم.

لماذا الغارة صباحاً؟!:

وعن تحديد وقت الصبح موعداً للغارة نلاحظ أن فيه:

1 ـ الإستفادة من الساتر الطبيعي، وهو الظلام.

2 ـ إن النور المنتشر ببطء شديد بعد الفجر لا يسمح بالرؤية المستوعبة الكاشفة لدقائق ما في الزوايا والحنايا، حتى من الراصدين والمراقبين.

ويقولون في أيامنا هذه: إن أجهزة الرؤية الليلية تتعطل، أو تقل فعاليتها في هذه الساعة، وفي ساعة أخرى عند الغروب أول الليل.

3 ـ لا يستطيع العدو تحديد الأشخاص، هل هم له، أو عليه. وإذا ابتعد عن الشيء قليلاً زاد إبهامه.

4 ـ إن هذا الساتر يجعل العدو عاجزاً عن تحديد المواقع التي اختارها مهاجمه لتمركز بعض قواته لأغراض معينة، ويمنعه من التدقيق في طرائقه القتالية، ومن معرفة أنواع الأدوات والوسائل التي يستفيد منها.

5 ـ في وقت الصبح يشعر حراس المواقع بالتعب، ويحل عليهم النعاس، وتتضاءل لديهم درجة الحذر، لعلمهم بأن نور النهار زاحف إليهم، ومقبل عليهم، وأصبحت مهمتهم في نهايتها، أو تكاد.. فلا يقاومون سلطان النوم بشدة، بل يشتاقون إلى الحصول على غفوة سريعة.

أما سائر العناصر، فإنهم بين مستغرق في نومه، مستسلم لأحلامه، وبين مسترخ يتحسس في فراشه، وسائر ما حوله قدراً من الدفء والليونة، والنعومة، التي تفرض نفسها عليه، ويبقى هو توَّاقاً إليها، وتبقى هي تجتذبه إليها.

ومن يكون في هذا الحال، فإن مفاجأته بالحرب تحت جنح الظلام بهذه الشراسة والعنف، والحركات المفرطة في سرعتها، ومع كثرة تقلباتها.

ومع فقدانه أي تصور مسبق عن المهاجمين، وقدراتهم، ووسائلهم،

وأماكنهم، وغير ذلك مما قدمناه.

إن مفاجأة هذا المستسلم لأحلامه، والملتذ بتخيلاته وأوهامه سوف تجعله يغرق في حالة من الضياع، وفقدان التوازن والارتباك.

وسوف يصعب عليه أن ينتقل بأقصى سرعة من هذا الاسترخاء الثقيل إلى حالة قتالية لم يتهيأ لها، فهو لا يزال في لباس النوم، فيحتاج إلى لباس الحرب، وإلى آلة الحرب، وإلى تحديد موقعه فيها، وما إلى ذلك.. ليمارس أعنف الحركات القتالية، ويستوعب الواقع الجديد الذي يفرض نفسه عليه.

فكيف إذا انضم إلى ذلك كله المؤثرات الصوتية، التي تشي بأوضاع غامضة ومبهمة، وبالمؤثرات البصرية التي تشير إلى الشدة والثبات والقسوة، والحزم، وما إلى ذلك!

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا):

قلنا: إن الساتر من أهم الأصول التي يجب اعتمادها في الحرب في أكثر حالاتها وتقلباتها، وقد أشرنا إلى ذلك ضمن الحديث عن الساتر الطبيعي، وهو ظلام الليل، فإذا انضم إلى ظلمة الليل، قليل من النور، تتبلور الحاجة إلى ساتر آخر مساعد له، مثل الغبار، وهو النقع الذي تثيره الخيل بحوافرها، ونتيجة لسرعة حركتها، أو الدخان الذي تطلقه الآليات، أو القنابل الدخانية المعدة لذلك.. فإن الأمر يصبح أكثر تعقيداً على العدو، حيث إنه:

1 ـ يعطي الجـو المزيد من الرهبة والضيق، والضغط النفسي بسبب شعوره بالحصار الذي لا حيلة له في دفعه.

2 ـ يزيد من توقع المفاجآت، التي تأتي معها بالمزيد من الغموض الذي يكتنفها.

3 ـ إن تمازج الغبار، أو الدخان مع الظلمة، لا يبقي لذلك النور الضئيل المتسلل إلى حنايا الظلمة أي أثر، ويخيم العمى المطلق على العدو، بالإضافة إلى الجهل المطبق بما يجري، بعد مفاجأته بالهجوم الصاعق.

4 ـ يضاف إلى ذلك: أن الغبار يشبه الضوء لمن يراه من بعيد، ولكنه شبه ظاهري. إلا أنه في الواقع حاجز وحاجب.

5 ـ إن ذلك يخرج كل جهاز رصد العدو من دائرة الجدوى نهائياً.

أما المهاجم، فلا يواجه أية مشكلة، فإنه ينفذ خطة رسمها، وعرف فصولها وأهدافها بدقة، وقسّم مهمات قواته، ووزعها بحيث لا تتأثر بالجو الذي فرضه على العدو.

6 ـ إن هذا العمى المطبق يجبر العدو على هدر طاقات أكبر في تحرزه من مهاجميه، وإنما يتحرز مسبقاً مما يتوهم أنه ضمن خطة عدوه، وكثيراً ما يكون مجرد وهم باطل.. كما أن بعض وسائل التحرز قد لا تكون متوفرة لديه، أو يحتاج استحضارها إلى وقت وجهد.

7 ـ لعل الحديث مرة أخرى عن الساتر للإشارة إلى شدة الحاجة إليه، فإذا فقد الساتر الطبيعي، فعلى قادة الحرب أن يصنعوا ساتراً.

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا):

والأصل الأصيل أيضاً هنا: هو الالتفاف والحصار التام للعدو، دون

أن يبقى له أي منفذ، فإنه هو الهدف الأقصى والأهم، فإن لم يتيسر ذلك، فما تيسر منه. وهذا:

1 ـ يزيد في إرباك حركة العدو.

2 ـ يسقط خطته عن الفعالية والتأثير، ويتحول من عنصر فاعل إلى القيام بردات الفعل بعشوائية وارتجال، وبدون تركيز..

3 ـ يقطع عنه المدد بالمؤن، والعتاد، والرجال.

4 ـ يصاب بالإحباط.

5 ـ يدعوه ذلك للتفكير بالاستسلام.

6 ـ إن ما عرف من أن التطويق والحصار، ينبغي أن لا يكون تاماً، بل يجب إبقاء ثغرة يمكن للعدو أن يتسلل منها، ليس له ما يبرره، بل هو خطأ.. وهذه الآية لم تشر إلى شيء من ذلك.. بل يكون هذا الأمر من أسباب رغبة العدو بالمطاولة والتسويف. وقد تتمكن قواته المحاصرة، أو التي أفلتت من إلحاق أضرار فادحة بأهل الحق، إن لم تكن سبباً للهزيمة لهم.

بقي سؤال يقول:

لماذا كان المحور في هذه الآيات الخمس هو خصوص العاديات، التي هي الخيل، ولم يكن المحور هو أصحابها مثلاً؟!

أو لماذا نحتاج إلى محور أساساً؟! ألم يكن بالإمكان تقرير هذه المعاني التي أشرنا إليها بصورة عادية، ومن دون توسل بالقسم؟!

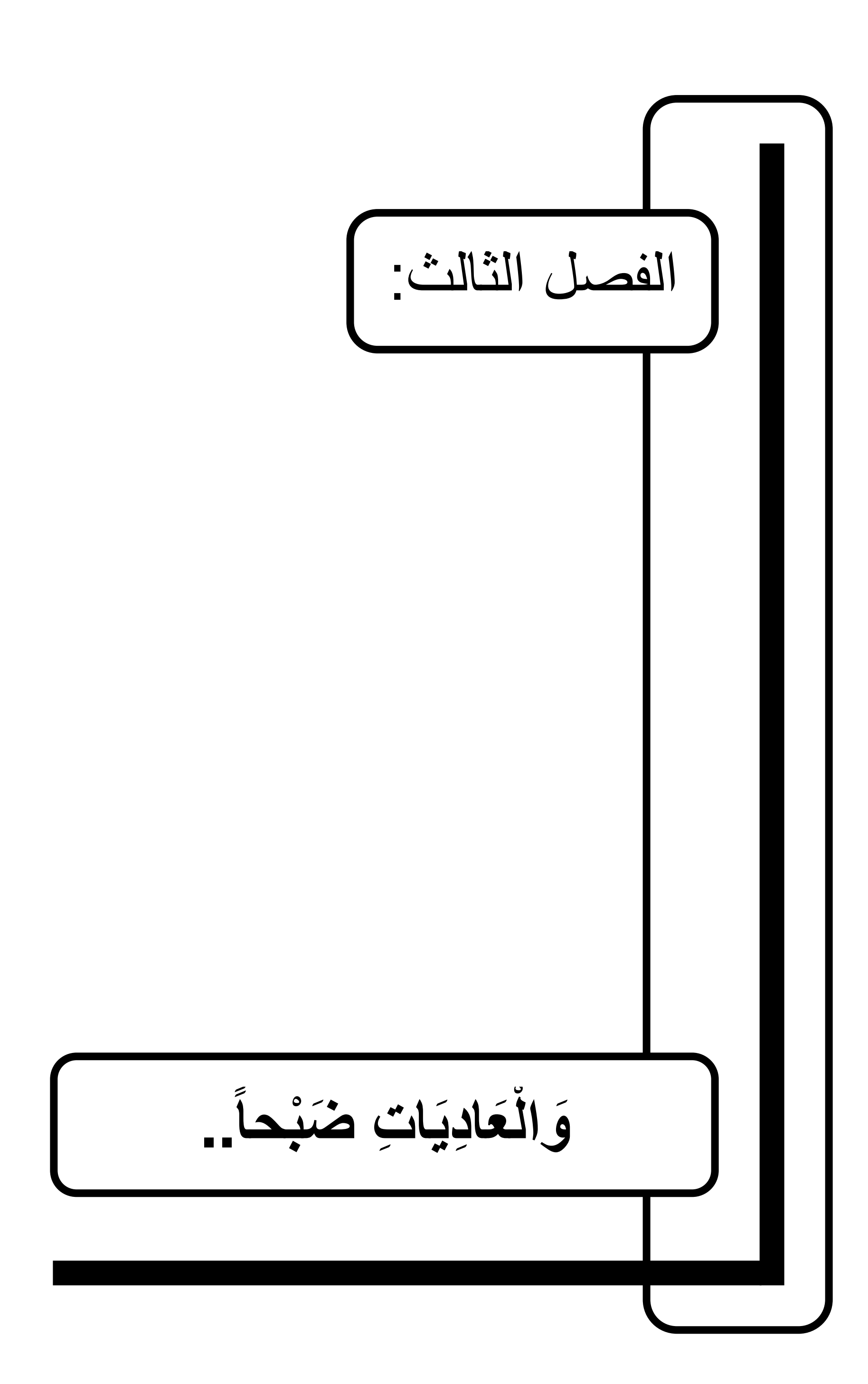
ونجيب:

أولاً: بأن التوسل بالقسم ضروري لإظهار أهمية الجهاد في سبيل حفظ الأمة وأنبيائها، وأوصيائهم، وجهودهم وتضحياتهم، ثم في صيانة الإنسانية، بل كل ما في هذا الكون من مخلوقات من الضياع والتلاشي..

وهذا يعطي: أن الإعلام المؤثر والقوي هو الذي يؤسس قواعد ومنطلقات للوعي لحقائق الكون والحياة، ويربط الأمور بركائزها، ويحدد نتائجها وآثارها، وفق ما لها من أثر في مسيرة التكوين، والحياة، وما لها من موقع في منظومة مخلوقات الله كلها.

ثانياً: إنه تعالى يريد أن يفهمنا: أن قداسة الغاية وطهرها وقيمتها، لا تقتصر عليها، بل تترشح منها إلى الأدوات، والوسائل التي أنتجتها، أو أوصلت إليها.. فإذا كان الجهاد لإقامة الدين واجباً، ومحبوباً لله، فلا يصح أن تكون وسيلتنا إلى هذا الأمر المحبوب لله ما هو مبغوض له سبحانه.

وإذا كان حفظ النبي والوصي مطلوباً ومحبوباً، فإن وسائل هذا الحفظ يجب أن تكون محبوبة لله، ولأجل ذلك كانت الخيل العادية في سبيل الله ذات قيمة وشأن عنده تعالى.. حتى لقد أقسم بها في سورة العاديات عدة مرات، فهي التي تعدو، وهي التي تضبح، وهي التي توري حوافرها النار، وتقدح الشرر، وهي التي تغير صبحاً، وهي التي تثير النقع، وهي التي تمكن فرسانها من الإحاطة بالأعداء، لكي تنتهي المعركة بنصر المحقين، وخذلان المبطلين.



الفصل الثالث:

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً..

بداية:

لقد أقسم الله تعالى في هذه السورة بالعاديات، الموريات، المغيرات، فقال: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**..﴾.

وحين يقسم الله بأمر فإنه لا يقسم بما هو تافه، وبلا قيمة، بل لا بد أن يكون له قيمة عظيمة، وله موقع محوري وأساسي في محيطه، الذي له آثاره على الحالة العامة في المجتمع البشري، فقد يقسم بما له محورية كونية، أو نظامية، أو قيمية، إذا كان أساساً لمنظومة من القيم.

وقد أقسم هنا بالعاديات. والمراد بالعاديات، الموريات، المغيرات: هي الخيل التي تعدو، ولكن لا مطلق الخيل، بل الخيل المغيرة.. والإغارة إنما تكون في الحرب..

والحرب على قسمين: حرب عدوان وظلم، وحرب دفاع عن النفس والعرض، وعن الحق والدين، وفي سبيل الله والمستضعفين.

ولا يعقل أن يُقْسِم رب العزة تبارك وتعالى بخيل الظلم والعدوان، فإنها لا حرمة لها، فالقسم في هذه السورة إذن هو بالخيل الغازية في سبيل الله سبحانه، وهي خيل المجاهدين الأبرار، لدفع غائلة الأشرار والكفار، الذين

يتآمرون على الإسلام، وعلى رموزه، وعلى نبي الإسلام ووصيه..

ومن الواضح: أن الأهمية الكبرى في أي شيء يجعله الله تعالى مورداً للقسم قد تكون كامنة في ذات ما يقسم به، وقد تكون هي الخصوصية الكامنة فيه..

فمثلاً: إذا نظرنا لبذل المال لمحتاج، فقد يكون لخصوصية حسنة، وهي: الشفقة، والعطف على الفقير..

وقد يكون لخصوصية سيئة، وهي السعي لاستغلال ذلك الفقير، ومصادرة جهده.

كما أن الظلم قبيح بذاته أينما حصل، وكيفما حصل..

أما ضرب الناس مثلاً، فإن كان على سبيل العدوان، فهو ظلم، وإن كان للتأديب كان حسناً.. فالخصوصية في الضرب هي التي تمنحه القبح أو الحسن.

وهذا بالذات هو ما نراه هنا، فإن العاديات وهي الخيل ليس في ذاتها ما يمكن أن يكون له محورية عظيمة، وتأثير هائل في الأهداف الإلهية، ولكن الخصوصية المضافة إليها هي الأمر العظيم، المؤثر في الغايات والأهداف الإلهية الكبرى.

وهذا هو السبب في القَسَم بها، وجعلها ضمانة لحصول ما يخبر عنه، من حال هذا الإنسان في قوله: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾.

والخصوصية التي جعلت للعاديات أهمية فائقة، تجعلها بحيث لو ذهبت لحصل اختلال وضرر عظيم للبشرية، هي: أن هذه الخيل هي الوسيلة لإقامة دين الله في الأرض، والدفع عن الحق وأهله، وعن النبي والوصي، وعن القيم والرسالات السماوية، وأثبتت صدق رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأظهرت المزايا العظيمة لوصيه علي «عليه السلام» التي لا توجد في غيره، كما أظهر النص المتقدم لما جرى في غزوة ذات السلاسل، حيث كان هدف أولئك القوم ـ وكانوا اثني عشر ألفاً ـ قتل النبي «صلى الله عليه وآله» وعلي «عليه السلام». مع أن عدد الذين كانوا مع علي «عليه السلام» كان سبع مئة فقط.

وقيل غير ذلك.

فالعاديات حفظت هذا الدين وأعزّته، ودفعت شراً عظيماً وهائلاً. فهي خيل عزيزة وحبيبة، والتخلي عنها، وإسقاطها يعني التخلي عن الدين والحق، وعن أجلّ وأعظم الأهداف الإلهية.

وهذا ما يريد الله أن يُفهمنا إياه بالقسم بها، لأن القسم بها معناه: جعل بقائها رهناً بحصول ما يقسم بها لأجله.

وبهذا النبي والوصي، وبهذا الدين الإلهي تصل البشرية إلى كمالها، وتتحقق الأهداف الكبرى من الخلق كله.. فللعاديات أهمية أساسية، ومحورية في هذا الأمر.

وليست هذه العاديات هي تلك التي تعدو في سبيل الأهداف الشيطانية التي تقوم على الظلم والعدوان، والتي جمعها أهل وادي الرمل لقتل النبي،

وعلي والمسلمين.

وَالْعَادِيَاتِ:

ويلاحظ: أنه تعالى لم يذكر الخيل صراحة، بل ذكرها بوصفها، وهو: العدو، الذي هو الركض، وهو الوصف الذي يطلب منها فارسها إظهاره على صفحة الواقع.

وهو أهم وأغلى شيء تقدمه الخيل للغازي في سبيل الله، لأن وصف العَدو إذا كان نحو العَدّو، فإنه يرعبه، ويربكه، ويمكِّن المجاهد من الوصول إليه، والتغلب عليه، قبل أن يعود رشده إليه، وهو يُفقد العدو زمام المبادرة، ويعمي عليه سبل اتخاذ القرار، وتنصرف همته إلى التماس المخارج لنفسه من المأزق الذي هو فيه، وما يصونه من مهاجمه.. ولا يعرف شيئاً عن أنواع الأخطار الأخرى التي تنتظره..

كما أن هذا العَدّو لا يعرف من أي جهة تأتيه خيل المجاهدين، ولا يعرف مواقعهم، ولا يعرف عددهم، ولا عدتهم.

ضَبْحًا:

إذا كانت المبادرة للهجوم أفضل وسيلة للدفاع، فإنه ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا.. فإن هذه المبادرة لن توصل إلى الهدف المطلوب إذا كانت بطيئة الحركة، وسيدخل ذلك فساداً، ووهناً فيها من أكثر من موضع وجهة.

فالسرعة في الحركة مطلوبة، بل ينبغي أن تكون سرعة فائقة، كما ربما تلمح إليه كلمة ﴿**ضَبْحًا**﴾، فإن تقدير الكلام في الآية هكذا: «أقسم بالعاديات،

التي تضبح ضَبْحًا».

والضبح: هو صوت أجواف الخيل من شـدة العدو، ليس بحمحمة ولا صهيل.

وهي أصوات لا تصل إلى مسامع العَدّو إذا كان بعيداً، وإن كان قريباً ووصل هذا الصوت المبهم إلى مسامعه في الليل كان لهذا الصوت وحشة ورهبة في قلوب الأعداء، وقد يصعب تمييزه عن أصوات أخرى تثير الرعب في القلوب، وربما اختلطت الأمور على العدو.. فلم يميز أياً منها عن غيره.

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا:

فإذا صاحب ذلك قدح الشرر من حوافر عدو الخيل، وهي تصطك بالحجارة بقوة، وكان ذلك بكثرة ظاهرة، فإذا رآه العدو، فإنه يزداد خوفاً ورهبة، وحيرة..

والشرر إنما يُرى بالليل، لا بالنهار..

وحيث إن عدو الخيل كان باتجاه هدف بعينه، فإن تحديد الهدف مسبقاً بدقة قبل التحرك يصبح ضرورياً.

وهذا يكرس أيضاً عنصر السرعة الفائقة في الهجوم..

ويضاف إلى ذلك: أن هذه الحالة تحدث بلبلة في أفكار العدو، وتتسبب بعدم الوضوح له.. وهذا يفقده عنصر السيطرة والقدرة على إدارة العمليات.

كما أن ذلك من مفردات الحرب النفسية، ومن موجبات الإخـلال بمعنويات الأعداء من خلال أصوات مخيفة وغير واضحة.

ثم تأتي المفاجأة بصهيل الخيل، لتزيد الأمور اختلاطاً عليهم.

الفاء في آيات سورة العاديات:

فللفاء في قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾، وقوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾، ﴿فَأَثَرْنَ﴾، ﴿فَوَسَطْنَ﴾ دلالة على وجود تراتبية وتدرج لهذه المراحل، فتأتي كل واحدة منها بعد سابقتها بلا فصل..

وقد أظهرت وقائع غزوة ذات السلاسل: أن ترتيب المراحل وتعاقبها المباشر هو ما حصل في الواقع الخارجي، وقد جاء متوافقاً مع نسق آيات السورة المباركة.

ويلاحظ هنا: أنه أقسم بالخيل من حيث هي مورية للنار، أي مضرمة، أو مخرجة لها، والقدح هو عملية إخراج هذه النار بواسطة اصطكاك أجسام صلبة ببعضها، وقد تكون من الخشب، أو الأحجار، أو الحديد، أو غيرها.

وحيث كان المطلوب هو خروج النار المسبب عن القدح، فقد قدَّمه على مسببه، وربما كان من أسباب ذلك:

أولاً: أن القدح قد يتكرر، ولا تخرج نار.

ثانياً: أن الذي يتجسد الهدف به هو نفس خروج النار، وهو الذي يريد أن يوظفه في خدمة الهدف الذي هو بصدد تحقيقه.

وقد نكَّر تعالى كلمة قدحاً للتكثير، فإن كثرة اللمعات النارية وامتدادها على مساحات واسعة أمر مثير للفضول والتساؤلات، وربما يستغرق الإنسان في متابعته، دون كلل أو ملل، إلى أن تفوت فرصة استيضاح ما يجري، والعمل

على تدارك الأمور.

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا:

وهذه هي المرحلة الثالثة من عدة مراحل كانت تنجزها خيل المجاهدين، وهذه المراحل هي التالية:

المرحلة الأولى: السير السريع نحو العدو لسبق الأخبار إليه، وقد كانت تضبح ضبحاً، بسبب الجهد البالغ الذي تبذله في عدوها..

المرحلة الثانية: أنها كانت بسبب اصطكاك حوافر الخيل بالحجارة توري ناراً، وكأنها قدح زناد.

المرحلة الثالثة: أنها أغارت على العدو صباحاً، بصورة مفاجئة. بعد أن أزيل العكام عنها، وصارت تصهل..

المرحلة الرابعة: أنها أثارت النقع في ساحة العدو.

المرحلة الخامسة: أنها طوَّقت العدو، وحاصرته من جميع الجهات.

وكل هذا كان من صنع الخيل، التي تمكن علي «عليه السلام» من توظيف كل طاقاتها في جهاد أعداء الله.. وإن كان ذلك بهداية المجاهدين لها، وهم يمتطونها.

فقد وظَّف «عليه السلام» قوتها البدنية على العدو، مع حملها أثقالاً من الفرسان وعتادهم.

ووظَّف حوافرها لتقدح ناراً يزيد لمعانها من قلق الأعداء.

ووظَّف أنفاسها حين كانت تضبح في خدمة الهدف الكبير أيضاً.

ثم وظَّف أصواتها وصهيلها لبث المزيد من الرعب في قلوب الأعداء.

ثم وظَّف حوافرها وهي تجول في ساحة المعركة في إثارة ساتر آخر يعاضد الساتر الطبيعي، وهو ظلام الليل، في تعمية السبل أمام الأعداء.

وفوق ذلك وظَّف المزيد من جهد هذه الخيل في تطويق الأعداء، والتمكين منهم.

وبذلك يكون «عليه السلام» قد استنفد جميع طاقات هذه الخيل، من أول لحظة انطلاقها في سبيل الله إلى لحظة الحسم الأخيرة في قهر الأعداء.

الفاء لترتيب المراحل بالخمس:

وقد أظهرت «الفاء» التي تكررت في كل آية بعد الآية الأولى ـ أظهرت ـ هذه التراتبية، والتدرج الطبيعي بين هذه المراحل، ربما لتدل على شدة الوضوح في أنها هي التسلسل الطبيعي، الذي لا محيص عنه.. ولتدل على أن الأمر في الجهاد الحربي ليس مجرد عمل مزاجي تفرضه اللحظة، ولا مجال للتخطيط له، ولا معرفة فصوله وحالاته إلا بعد وقوعها..

المفاجأة:

وقد يمكن أن يُفهم عنصر المفاجأة للعدو من قوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾، ولاسيما مع قوله: ﴿صُبْحًا﴾، فإن اختيار الصباح أيضاً لشن الغارة ليس إلا لتحقيق هذه المفاجأة.

وقد ذكرنا بعض مزايا الإغارة في وقت الصباح في موضع آخر سيأتي إن شاء الله تعالى..

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا:

وهذه هي المرحلة الرابعة التي تكفلت الخيل بتحقيقها، وهي: أن تهيج وتثير النقع ـ أعني الغبار ـ في ساحة القتال..

ونلفت النظر هنا إلى ما يلي:

الأول: أنه قد يقال: إلى أي حد يستساغ عطف الفعل، وهو قوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ على الاسم في قوله: ﴿**فَالْمُورِيَاتِ**﴾.

ويجاب:

بأن هذا الاسم فيه معنى الفعل، لأنه اسم فاعل، فكأنه قال: أقسم بالذوات (أو بالخيل) اللواتي عدون، وأورين، وأغرن، وأثرن.

الثاني: إن كلمة «به» في هذه الآية، وفي الآية التالية تحتاج إلى إيضاح مرجع الضمير فيها، فقد اختلفوا في ذلك، فقد قال العلامة الطباطبائي «رحمه الله»: «وضمير به، (في قوله تعالى: ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**﴾ يرجع) للصبح، والباء بمعنى في، أو الضمير للنقع، والباء للملابسة.

والمعنى: فصرن في وقت الصبح في وسط الجمع.

والمراد به: كتيبة العدو، أو المعنى: فتوسطن جمعاً ملابسين للنقع»[1].

وقيل: الضمير في «به» يعود إلى العدو المذكور في (والعاديات ضبحا)، فهي باء السببية، أي بسبب هذا العدو يثور الغبار، ويملأ الجو.

واحتمل بعضهم: أن يكون مرجع الضمير زمان أو مكان ذلك الهجوم.

---

(1) راجع: تفسير الميزان ج20 ص346.

وتكون الباء عندئذ ظرفية.. والصحيح المعنى الأول[1].

وهناك من قال: إن الضمير في «به» يعود على الوادي، وإن لم يتقدم له ذكر[2].

وقالوا: كل ما يتعدى بـ «في» يتعدى بالباء، ولا عكس[3]..

فالأقوال في مرجع الضمير أحد أربعة، هي:

1 ـ الصبح.

2 ـ النقع.

3 ـ العدو. بمعنى الركض.

4 ـ المكان. وهو الوادي الذي نزل فيه العدو.

ونقول:

لا نريد مناقشة هذه الأقوال، بل نكتفي بالإشارة إلى ما هو الراجح منها بنظرنا، فنقول:

أولاً: إن التأمل في الآيات يعطي: أن من الممكن أن يكون جميع ما ذكر آنفاً مقصوداً، سواء بالنسبة لمرجع الضمير: المكان، والنقع، والصبح، والعدو، المأخوذ من العاديات.

---

(1) راجع: تفسير الأمثل ج20 (هامش) ص359.

(2) راجع: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ج8 ص387.

(3) المصدر السابق.

أو بالنـسبة للباء من معنى التَعْدِية، والسـببية، والظرفية، بمعنى «في»، والملابسة.

فيصح أن يقال: بأن تلك الخيل قد طوَّقت جمع الأعداء في ذلك الوادي الذي هم فيه.. فيكون الضمير راجعاً للمكان، وتكون الباء بمعنى «في».

ثانياً: يصح أن يقال: أثرن بالعدو نقعاً، ويكون الضمير راجعاً للعدو، والباء للسببية.

وأن يقال: فوسطن بالعدو جمعاً. أي بسبب العدو السريع جعلت تلك الخيل جمع الأعداء بالوسط.

ثالثاً: ويصح أن يقال: أثرن بالصبح نقعاً، ووسطن، أي بالصبح جمعاً، فيكون الضمير راجعاً للصبح، وتكون الباء بمعنى «في».

رابعاً: يصح أن يقال: فوسطن به، أي بالنقع جمعاً، فيكون مرجع الضمير في هذه الآية هو النقع، والباء للملابسة، أي أن الخيل جعلت جمع الأعداء في وسطها، وكان الغبار ملابساً لهذه الحالة أيضاً.

أو تكون الباء للتعدية، فهي كقولك: ذهبت بزيد، وأكثر ما تـرد مع اللازم، ولا ترد مع المتعدي، مثل: صككت الحجر بالحجر.. والأصل صك الحجر الحجر، ولا تجامع الهمزة[1].

وبذلك يعلم: قيمة وأهمية هذه الباء في هاتين الآيتين، من حيث جامعيتها لخصوصيات عديدة ومختلفة، تجعلها قابلة للانسجام مع المعاني المختلفة

---

(1) أقرب الموارد ج1 ص27.

لمرجعها أياً كان هذا المرجع.

ويبقى هنا سؤال يراود أذهان الكثير من الناس، عن استعمال المشترك في أكثر من معنى، فقد قال العالم الأصولي الشيخ الآخند في كتاب كفاية الأصول: إن ذلك غير مستساغ.

ولكن هناك علماء آخرون قد ناقشوه في قوله هذا، ولم يوافقوه على أدلته، وقالوا: إن التورية في لغة العرب تشهد على صحة هذا الاستعمال.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا:

وعن قوله تعالى: ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ نقول:

قد تكلمنا عن مرجع الضمير في كلمة «به» هل هو الصبح؟**!** أو المكان، والوادي، الذي كان الأعداء ينزلون فيه؟**!** أو غير ذلك..

ويبقى أن نشير إلى ما نفهمه من الآية بمجملها، حيث يبدو لنا: أن المراد: أن الخيل قد تمكنت من أن تجعل جمع الأعداء في الوسط، حيث ضربت على ذلك الجمع طوقاً كاملاً، حتى لم يبق لهم أي منفذ.

وهناك من يقول: إن الآية تتحدث عن عكس هذا المعنى، وتقول: المراد: أن الخيل جعلت نفسها في وسط الأعداء.

ولتوضيح ذلك نقول:

قال في الميزان: «والمعنى: فصرن في وقت الصبح في وسط جمع. والمراد به: كتيبة العدو، أو المعنى: فتوسطن جمعاً ملابسين للنقع».

وقال «رحمه الله»: «وسط وتوسط بمعنى»[1].

فهو «رحمه الله» يرى: أن المراد: أن خيل المجاهدين أصبحت وسط الأعداء.

وقال في كتاب الأمثل: «قيل: إن المقصود محاصرة الأعداء، وهذا يصح لو كان الفعل فوسَّطن ـ بتشديد السين ـ والقراءة المشهورة ليست كذلك، والصحيح هو المعنى الأول إذن».

ومراده بالمعنى الأول: هو أن «هجومها كان مباغتاً خاطفاً، بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف العدو، وتشن حملتها في قلبه، وتُشتت جمعه، وهذا نتيجة ما تتحلى به من سرعة، ويقظة، واستعداد، وشهامة، وشجاعة»[2].

ونقول:

ألف: يبدو لنا: أن ما ذكر في كتاب الميزان وكتاب الأمثل مأخوذ من النصوص التالية ونحوها:

1 ـ يقول أهل اللغة: يقال: وسطت القوم والمكان (أسط) (وسطاً) من باب وَعَد، إذا توسطت بين ذلك[3].

2 ـ وقالوا ايضاً: جلست وسْط القوم ـ بالتسكين ـ، لأنه ظرف.. وجلست في وسَط الدار ـ بالتحريك ـ، لأنه اسم (لما يكتنفه غيره من جهاته).

وكل موضع صلح فيه «بين» فهو وسْط، وإن لم يصلح فيه «بين» فهو

---

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص346.

(2) الأمثل في تفسير القرآن ج20 ص359.

(3) المصباح المنير ج2 ص659.

وسَط بالتحريك[1].

3 ـ وقال الفيروزآبادي: «ووسطهم، كوعد، وسطا وسطة: جلس وسطهم، كتوسطهم. وهو وسيط فيهم.

إلى أن قال: ووسط الشي، محرَّكة: ما بين طرفيه، كأوسطه. فإذا سكنت، كانت ظرفاً، أو هما فيما هو مصمت كالحلقة، فإذا كانت أجزاؤه متباينة، فبالإسكان فقط، أو كل موضع صلح فيه بين، فهو بالتسكين، وإلا فبالتحريك»[2].

ب: غير أننا نقول:

إن علماء اللغة إنما يذكرون موارد استعمال اللفظ في المعاني المختلفة، ولا يجب أن يكونوا مصيبين في جميع ما فهموه، وإن أصابوا، فليس بالضرورة أن يكونوا قد استوفوا جميع خصوصيات المعنى وحالاته، فقد يغفلون عن بعضها، فقولهم: «إن معنى قولك: وسطت القوم: جلست في وسطهم، ليس بأولى من أن تكون كلمة القوم ـ وهي مفعول به لكلمة وسط ـ هي التي وقع عليها الوسط».

لأن هناك فرقاً بين وسطت القوم، التي تشتمل على قرينة تحتم أن يكون الشخص هو الواقع في وسط القوم، لأنه يتحدث عن مفرد، لا يمكن أن

---

(1) الصحاح للجوهري ج3 ص1168 ومجمع البحرين ج4 ص278 والقاموس المحيط ج2 ص391.

(2) القاموس المحيط ج2 ص391.

تصدر الإحاطة منه لجماعة آخرين.

وبين ما إذا كان فاعل الوسط جماعة، وقد أوقعته على جماعة أخرى ـ كما هو في مورد هذه الآية ـ فإن الاحتمالين يصبحان واردين في الآية، إذ يصح أن يقال: الخيل جعلت نفسها في وسط جمع الأعداء، لأجل تفريقهم وتمزيقهم مثلاً، ويصح أن يقال: إنها (أعني الخيل) جعلت جمع الأعداء في الوسط لمحاصرتهم.

أي جعلت للجمع ظرفاً ومكاناً جعلت الجمع فيه، فهو من قبيل: ﴿**جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾[1]. أي جعلنا الجمع وسطاً.

ج: والقرينة الحالية هنا ترجح هذا المعنى، إذ لا يعقل أن يجعل المحارب نفسه في وسط أعدائه.. لاسيما إذا كان هذا التوسط ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود ما يتبعه من تمزيق العدو، ولا يستحسن الحديث عن المقدمة، مع أن المقصود هو ذو المقدمة..

د: والتعبير بـ ﴿**فَوَسَطْنَ**﴾ قد ألمح إلى لزوم التطويق التام لجميع الأعداء، بنحو لا ثغرة فيه، فتكون كالحلقة المطبقة المصمتة كحائط الدار المحيط بها.

وهذا معناه: أن كلمة وَسَطْنَ مأخوذة من الوسط بتحريك السين، وإن كانت كلمة وَسَطْنَ للإشارة إلى أن أجزاء الطوق، وإن كانت متباينة، كقولك: جلست وسط القوم، أو وسط قطعة الأرض، أو وسط الشارع، أو في مكان

(1) الآية 143 من سورة البقرة.

فيه حجر من هنا، ولوح خشب، أو خشبة من هناك، ونحو ذلك..

فكلمة وَسْطَنَ مأخوذة من الوسط بتسكين السين.. والتطويق حاصل في الحالتين معاً، إن كان من قبيل: جلست وسط القوم، أو في خصوص بعض الحالات، كما في وسط الشارع.

د: وقد قلنا: إن جعل الخيل نفسـها مطوقة من قبل أعـدائها أمر غير منطقي ولا مقبول.. فما ذكره العلامة الطباطبائي وغيره، لا مجال للمساعدة عليه، لأنه خلاف الحكمة، والتدبير الصحيح..

ولعل هذا يدلنا على السبب في أن الله تعالى لم يقل: فتوسطن، بل قال: ﴿**فَوَسَطْنَ**﴾.

القسم العظيم:

وقد رأينا: أنه سبحانه قد أقسم بعدة أمور، واظهر عظمتها، ولم يكن أحد يعلم أن لها أي شأن يذكر.. فأقسم:

أولاً: بالخيل، بخصوصية عدوها، وركضها في سبيل الله.

ثانياً: بخصوصية هذه الخيل حين تضبح.

ثالثاً: بخصوصية خروج النار من حوافرها حين تصطك بالحجارة.

رابعاً: بخصوصية الغبار الذي تثيره بحوافرها، بسبب سرعة عدوها، وحركتها، وجولانها.

خامساً: بخصوصية إغارتها وقت الصبح في غفلة من العدو.

سادساً: بخصوصية تطويقها جمع الأعداء، وإنهاء مقاومتهم، بصورة

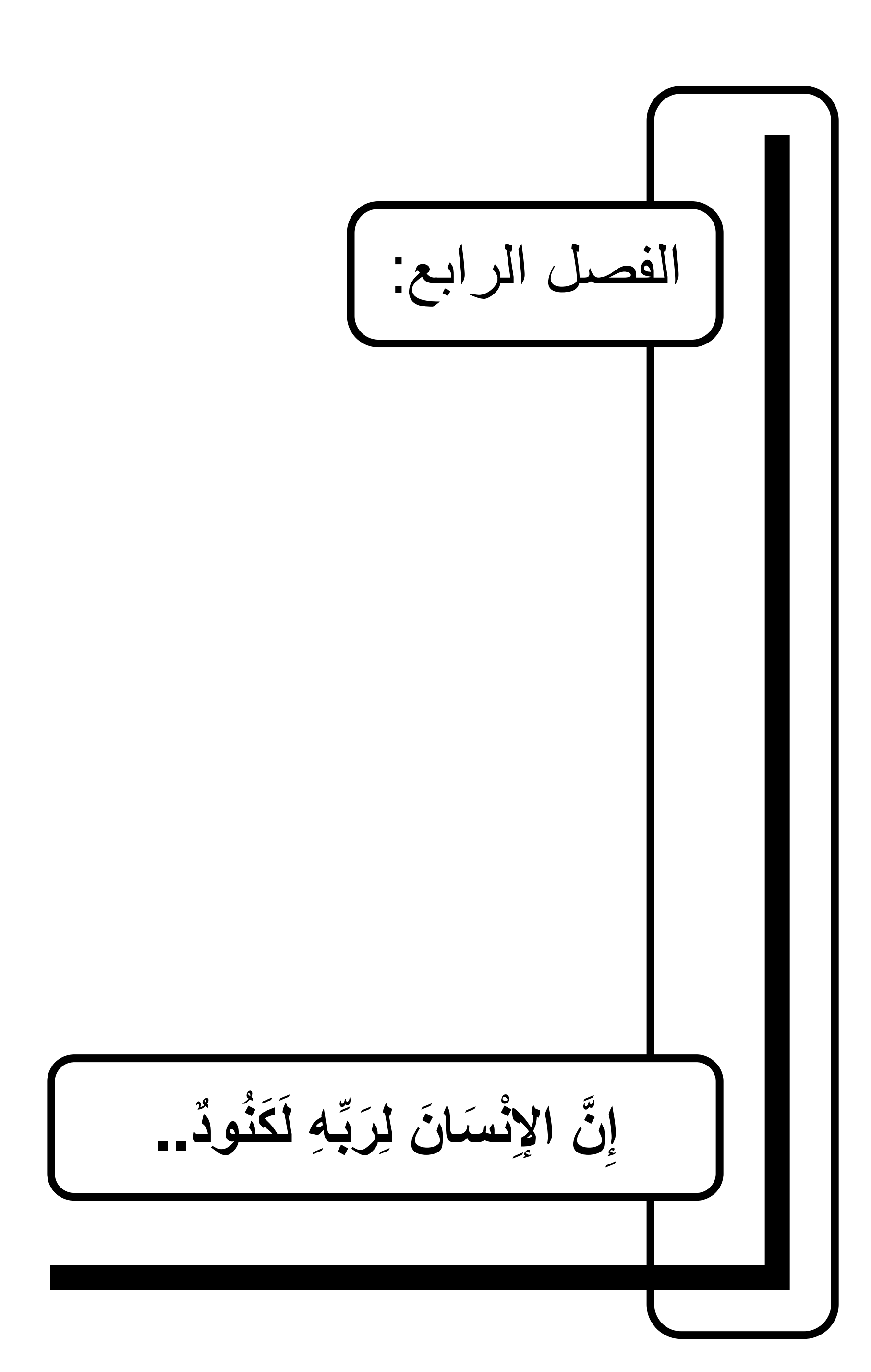
حاسمة ونهائية.

والتركيز على هذه الخصوصيات، وإدخالها في حيِّز القسم لهو من عجائب القرآن، ودقائقه، ولطائفه التي لا تنتهي، ولا تنقضي.

وهو يدل على القيمة العظيمة لعمل المجاهدين، بل حتى لمثل هذه الأمور، التي لا يتوهم أحد أن تكون لها أية قيمة.. وهذا يكشف عن أثرها العظيم والمصيري، حتى على مستوى البشرية جمعاء، الأمر الذي استحقت به أن تجعل في حيِّز القَسَم الإلهي.

إننا قد نتعقل أن يُقْسِم الله تعالى بالشمس، أو بالقمر، ومواقع النجوم، والليل والنهار، ونحو ذلك، لحساسية موقع هذه الأمور في المنظومة الكونية.

ولكن كيف يمكن أن نتصور القسم بتطاير الشررمن حوافر الخيل، أو بغير ذلك مما ذكرناه.. فإن ذلك هو الذي يحفظ لمسيرة البشرية سلامتها، ويصون جهود الأنبياء والأوصياء، والشهداء، والأخيار، ويوصل البشرية إلى كمالها المنشود.. وقد جعل تعالى له هذه المكانة الخاصة، وقرنه بأعظم الأشياء أثراً بالنظام الكوني العتيد.



الفصل الرابع:

إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ..

جواب القسم وتأكيداته:

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾، ليكون جواب القسم، وهي جملة لا محل لها من الإعراب.

ويلاحظ: أن جواب القسم هذا وتوابعه، قد حشد الكثير من المؤكدات، بالإضافة إلى القسم السابق، الذي تعددت متعلقاته..

مثلاً: هناك التأكيد بـ «إِنَّ» المشددة، التي هي بمثابة تأكيد متكرر.. وجملة الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ جملة اسمية تفيد: الثبات والبقاء، وهو نوع من التأكيد.

وهناك تأكيد باللام ـ وهي اللام المزحلقة، التي إن اجتمعت مع «إِنَّ» التي لها صدر الكلام أيضاً، فلا بد أن تزحلق أي أن تزال عن موضعها، وتدخل على خبر «إِنَّ».

أما كلمة «إِنَّ»، فثبتت في موضعها، لأنها حرف عامل، ولها اسم وخبر، فتتقدم على حرف لا عمل له، وهو اللام هنا.

كما أن الخبر إذا كان من صيغ التكثير، مثل: كنود، غفور، كفور، أكول، ظلوم، جهول، هلوع، فإنه يحمل في طياته نوعاً من التأكيد أيضاً، لأنه يفيد تكرر حصول هذا الأمر إلى الحد الذي صح معه انطباق هذا الوصف عليه،

وهذا التكرار مؤيد وشاهد على الاستمرار والبقاء، وهو مفاد التأكيد.

ثم تأتي التأكيدات المتعددة أيضاً في الآيات اللاحقة، المرتبطة بهذا القسم في قوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾**.

ما الربط بين القسم وجوابه؟!:

والسؤال الأهم هنا: هو عن الربط بين **﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾**. وبين **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾**.

بل إنه تعالى لم يذكر المجاهدين في هذه الآيات الخمس، ولا في التي بعدها إلى آخر السورة.

كما أنه لم يذكر الجهاد بشيء، بل اكتفى بذكر الخيل بوصفها تعدو وتركض، وذكر صوت أنفاسها وهي تضبح، وذكر أيضاً خروج النار من حوافرها، وهي تقدح الشرر.

وكأنه تعالى يريد أن يمنح الأهمية القصوى، والعظمة، والقداسة، والتكريم لخصوص هذه الأمور. فما هو سبب ذلك؟!

ويجاب:

بأن الثناء في هذه السورة المباركة على الجهاد، والمجاهدين، قد بلغ أقصى

الغايات، كما أن التعظيم والتكريم للجهاد، والمجاهدين قد لا يكون له نظير.. حيث اعتمد البيان الإلهي ما يسمى بالأولوية القطعية كطريقة مثلى لإظهار هذه الكرامة والمزايا العظيمة لهذه المعاني.

فإذا كانت أنفاس خيل المجاهدين، وقدح الشرر من حوافرها، وحركتها السريعة لها هذه القداسة، والعظمة والكرامة عند الله، حتى إن الله سبحانه يجلّها في مورد قسمه، بسبب ما لها من آثار عظيمة، فما بالك بالمجاهد الباذل نفسه في سبيل الله، وبالجهاد الذي لأنفاس خيله هذه القيمة؟!

كما أن جواب القسم قد بيَّن لنا مصير الإنسان، ومآل أمره في الدنيا والآخرة مرهوناً بهذا الجهاد، وبوسائلة المتوفرة للمجاهدين، مع علمنا: بأن الله تعالى قد خلق السماوات والأرض من أجله، وسخر ما فيهما له.

ما المراد بالإنسان؟!:

والسؤال هو: ما المراد بالإنسان في هذه الآية المباركة؟!

ويجاب:

بأنه لا يمكن أن يكون المراد به: هو الإنسان المؤمن، فضلاً عن الأبرار والأخيار، والأنبياء، والأوصياء.. إذ لا يمكن وصف هؤلاء بالكنود لربهم، والكنود هو البخيل الشحيح بالخير، الكفور لربه.

فهل المراد إذن: الإنسان الطاغي والباغي، والظالم والشرير، التابع لشهواته، ولا يهتم للخير، ولا يوقِّر أهله؟!

أو المراد: الإنسان بقول مطلق، فيشمل الأخيار والأشرار؟!

ونجيب:

إن كل ما ذكر آنفاً غير مقصود بكلمة «الإنسان» في هذه الآية، بل المقصود: هو الإنسان الذي لو خُلِّي وطبعه، ولم يستضئ بنور العلم، ولم يتبع الأنبياء، وأوصياءهم، ولا عاش في بيئة أهل الخير، ولم يستجب إلى الهدايات الإلهية، ولا عرف الشرائع الربانية، ولم يسمع، ولم يتأثر بالمواعظ، ولا خضع لتربية، ولا لتعليم، وتطعيم، وتقليم، وما إلى ذلك.

نعم.. إن هذا الإنسان سوف يستغرق في حب الدنيا، وينجذب إلى ملذاتها، وما فيها من مغريات، ومن زبارج، وبهارج.. وسوف ينقاد لعصبياته، وتستبد به شهواته وغرائزه، ومنها: حب المال، والأولاد، والتكاثر بهما، وحب النساء.. كما أنه سوف تستبد به أنانيته، وملذاته..

إن هذا الإنسان لن يصل إلى شيء، ولن يكون هو الذي يعمر الدنيا، وينال درجات الكمال فيها، ولن يساعد على إيصال غيره من المخلوقات إلى كماله المنشود أيضاً.. وهذا هو الإنسان الذي يتحدث عنه الله تعالى غالباً..

وقد أرسل الله الأنبياء، بالهدايات لهذا الإنسان بالذات، وأوجب على العلماء إيصال الحقائق إليه، ومنحه أيضاً عقلاً يميِّز به الأمور، ويعرف به الكثير مما هو صالح أو طالح.. وهيّأ له من يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، وأقام له الوعَّاظ الأتقياء، الذين يذكِّرونه بعواقب المعاصي، ويزينون له فعل الخيرات.

هذا فضلاً عن الهداية الفطرية والتكوينية التي هيّأها سبحانه وتعالى له، وزوده بغرائز وملكات، وقوى، وقدرات، وأطلق فيه نوازع تثير لديه الرغبة

بالصلاح، مثل حب الكمال والخير، وحبب إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وما إلى ذلك.

فشهوات الإنسان، وإن كانت تدعوه إلى الانغماس في الملذات، ولكن الله تعالى يسر له سبيل الاستجابة لهذه الشهوات بالذات بطرق صحيحة أحلها له، دون أن توجب أية سلبية، بل هي تجعله قادراً على أن يعيش الانضباط في حياته العملية، من دون أن يكبت شهوته، وأن يستثمر عقله وفطرته، خصوصاً إذا التزم بالأحكام الشرعية.

لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ:

وعن قوله تعالى: ﴿**لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾، نقول:

قالوا: المراد بالكنود: الكفور.. ويستوي فيه المذكر والمؤنث.

والشحيح والبخيل.

والكافر.

والأرض التي لا تنبت.

ومن ينكر نعمة الله.. وغير ذلك.

ولكننا لم نجد في هذه المعاني ما يناسب كلمة ﴿**لِرَبِّهِ**﴾، فإن الموجود في القرآن تعدية كلمة كفر إلى الرب مباشرة، ومن دون توسيط اللام، فقد قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**﴾[1].

(1) الآية 60 من سورة هود.

وقال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[1].

ولا يصح أن يقال: كفر لربه.. بل يقال: كفر بربه.

ولا يقال: بخيل أو شحيح لربه.

ولا يقال: كفر للنعمة.. بل يقال: كفر بالنعمة.

والذي يصح من المعاني المذكورة التي جعلت تفسيراً لكلمة «كنود»، وينسجم مع العناصر التي تركبت الآية منها، معنيان، هما:

الأول: أن يكون الكنود بمعنى: العاصي لربه.

الثاني: أن يكون بمعنى: اللوام لربه..

أمران متقابلان.. لماذا؟!:

وقد لوحظ ـ كما قدمنا ـ: أن الله تعالى يقسم في هذه الآيات الخمس، بخيل المجاهدين، ويعطي القيمة الكبرى حتى لأنفاسها، وقدح النار من حوافرها، والغبار الذي تثيره من حولها.. ويجعل ذلك كله مورداً للقسم، الذي يجعل هذه الأمور في مصاف أعظم شؤون التكوين التي أقسم تعالى بها، كالشمس والقمر، والنجوم ومواقعها، والسماء والأرض، وما إلى ذلك..

ومن الواضح: أن قيمة هذه الخيل وخصوصياتها ليست لذاتها، بل من حيث تلبيتها لما يريده منها فارسها المجاهد، فالقيمة الحقيقية له، فهو الذي تعدل قيمته قيمة حتى أعظم العناصر التي يقوم عليها التكوين.. هذا من

(1) الآية 68 من سورة هود.

جانب القسم نفسه.

ويأتي في الجانب الآخر: جواب هذا القسم، الذي تحدث عن الإنسان في أسـوأ حالاته، وأحط درجاته، من حيث هو محروم ـ أو حرم نفسه ـ من الهدايات الإلهية، وهو مستسلم لأهوائه، منقاد لغرائزه، تهيمن عليه عصبياته، مستغرق في شهواته.

فإن هذا القسم يثبت هذه الحقيقة.. فنحن أمام شخصيتين متناقضتين، من حيث الطاعة لله، والطاعة للشيطان، أو الانقياد للشرع والدين، أو للأهواء والغرائز والعصبيات.. ومن حيث خيرية وصلاح، وفلاح هذا، وسقوط ذاك في بؤر الشر والفساد، والرذيلة.

ولعل سبب ذلك: هو أنه تعالى يريد أن يكون هذا الأمر من طرائق الهداية، ولتوفير الأجواء، وفتح الأبواب للإنسان، ليجد أمامه سبل الإصلاح الحقيقي والشامل متوفرة ومضمونة، ومأمونة..

وليكن هؤلاء المجاهدون أسوة وقدوة، ونبراس هداية، ومشعلاً ينير للناس طرق الحصول على الكمالات، والهدايات، والألطاف الإلهية.

وتتأكد هذه المعاني الجميلة والجليلة لهذا الكنود حين يرى كيف أن هؤلاء المجاهدين يضعون نفوسهم الطاهرة أمام أهدافهم الكبرى، وعلى رأسها رضا الله، ونصرة المستضعفين.. لعل هذا الكنود يقارن بين نفسه وبين حال هذا المجاهد، حيث إن كل هم هذا الكنود هو إشباع شهواته، وتلبية غرائزه، والإساءة للنوع الإنساني بظلمهم، وإفساد حياتهم..

أما الكنود، فيعيش لنفسه، وهو حريص، وبخيل، وشحيح، وهو عاص

ولوّام له، وهو يسلب الآخرين أموالهم، ويعدمهم حياتهم، لكي يتلذذ بجنى عمرهم.

أما المجاهد، فهمه متمحّض في نيل رضا الله سبحانه.. وكل حياته حركة في نطاق الخير، وفي الصلاح والإصلاح، ونشر الهدى، والسعادة والأمان، والمحبة والرضا، ونجدة المظلومين، وكسر شوكة الظالمين، وتوفير أفضل أسباب العيش للناس، القريب منهم والبعيد.. وبذل كل غال ونفيس في سبيلهم، بل هو يؤثرهم على نفسه بلقمة عيشه، ولو كان به خصاصة، وشدة حاجة لا تطاق.. بل هو يضحي بحياته من أجلهم، وجهاده شاهد على صدقه في ذلك.

إنه تعالى يريد أن يرفع هذا الكنود، الظلوم الجهول، الذي أخلد إلى الأرض، حيث الخزي والمهانة، إلى أوج العظمة والعزة والكرامة.. من خلال تقديم النموذج والقدوة للرجل المجاهد، والتقي، والمضحي.. وسورة العاديات شاهد صدق على ذلك.. فإن الفساد والشر ليس قدراً يتحكم به، ويفقده اختياره، بل هو قادر على أن يتحول إلى إنسان صالح ومجاهد، وتقي، ومن أهل الخير والعلم، والوعي، متحرر من أسر الشهوات.. يريد حياة البقاء، وأن يبني الحياة الآخرة، من خلال الدنيا وتضحياته فيها، أو يكون شاكراً لربه، حامداً، مستغفراً، منيباً، مقراً، معترفاً بذنبه بدل أن يكون عاصياً، لواماً لربه.. وأن يكون سخياً بنفسه وماله، وأرضاً تنبت، بدل أن يكون حريصاً شحيحاً، كالأرض التي لا تنبت.

لماذا قال: لِرَبِّهِ؟!:

ويبقى هنا سؤال يقول: لماذا قال تعالى: ﴿**لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾، ولم يقل: لله؟! ويجاب:

بأن المطلوب هنا: هو إظهار قبح فعل هذا الإنسان الكنود، الذي لم يهتد بهدى العقل، ولم يستجب للفطرة، ولم يقـم وزناً لجهود الأنبياء والأوصياء، وتضحيات الشهداء، وجهود وجهاد الأبرار، والأخيار، والعلماء.

فاتخذ سبيل العصيان لربه، حتى صار الكفور بنعمه، بل أصبح لواماً لهذا الرب الذي خلقه، ورزقه، وأنعم عليه بجلائل النعم، وبخل هو بأمواله التي هيأها الله له، فلم ينفق منها شيئاً في سبيل الله، ولا على عباده، إلى آخر ما تقدم من معاني تظهرها كلمة «كنود».

إن هذا الإنسان الذي لم يزل ربه يرعاه، ويغدق عليه النعم، ويدفع عنه الأسواء، والأدواء، والدواهي، والأعراض، والأمراض، والنقم.. يكون في موقع العاصي، واللوام لربه، وكأنه يتهم ربه بالتقصير في الرعاية والتدبير، ويطعن في صفاته، التي منها صفات العلم والحلم، والكرم، والرحمة، والرأفة، والحكمة، وما إلى ذلك..

وبذلك يظهر: أن كلمة لربه هي التي يجب أن يستفاد منها هنا، لأنه تعالى يريد أن يذكِّره بأن هذا الرب هو الحافظ والمدبر، والراعي، الذي لا يريد إلا الخير والكمال لمن يرعاه.

ولو أنه استبدل هذه الكلمة بكلمة «الله» فقد يغفل كثير من الناس عن هذه الحقائق التي ألمحنا إليها، بالرغم من أنها نِعَم لا تعد ولا تحصى ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا**

نِعْمَتَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

ولكن أحدهم لو أصابته أصغر شوكة في يده، فإنه يعج ويضج، ويظهر أشد الملامة لله، ويعترض عليه تعالى، متهماً إياه: بأنه هو الذي ابتلاه بهذه الشوكة، مع أنه هو الذي تعرض لها، ولم يحترس منها، وارتطم بها حتى أصابته، كما أنه لا يريد أن يبذل هو أي جهد للخلاص منها، بل يريد منه هو تعالى: أن يخلصه منها.

ونجد مصداق قوله تعالى عن الإنسان **﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾**[2]. وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾**[3].

نجد أن مصداق هذه الآيات لا يزال يتجلى في هذا الإنسان الكنود والكفور على أكمل وجه وأتمه..

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ:

وبالنسبة لقوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾**، نقول:

1 ـ إن أول ما يواجهنا في هذه الآية هو مرجع الضمير في كلمة: «إنه». فقيل: إنه يرجع إلى اسم الجلالة، أي أن الله شهيد على وجود صفة الكنود

(1) الآية 34 من سورة إبراهيم.

(2) الآية 72 من سورة الأحزاب.

(3) الآيات 19 ـ 23 من سورة المعارج.

في الإنسان، ورجَّح هذا كثير من المفسرين.

قال العلامة الطباطبائي: «واتِّساق الضمائر لا يلائمه»[1].

فإن الضمائر في الآيات التي قبله وبعده ترجع إلى الإنسان، ولو رجع الضمير إلى الله في هذه الآية، والتي بعدها، لأصبحت الآيات في مقام التعدي على العزة الإلهية.. فإنه تعالى لا يمكن أن يوصف بأنه يحب المال حباً شديداً.

كما أن الضمائر اللاحقة في الآيات التالية، كما في قوله: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**﴾ إلى آخر السورة لا يصح إرجاعها إلى لفظ الجلالة.. كما هو ظاهر.

فالمرجع هو الإنسان، والمراد: أن هذا الإنسان الكنود يشهد على نفسه بوجود صفة الكنود فيه، بما لها من معاني، مثل: الكفور، والبخيل، والعاصي الخ.. وذلك على قاعدة: ﴿**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾[2].

2 ـ إن شهادة الإنسان على نفسه بهذه الصفة الذميمة الجامعة للعديد من الصفات التي تزيد من قبحها ومن بشاعة هذا السلوك، تجعله غاية في الانحطاط والسقوط.

3 ـ إن شهادة الكنود على نفسه واعترافه بهذا الأمر الذميم يوم القيامة، هو كشف الحقائق المادية، الذي يمنع أي لبس، أو شبهة، ويدفع أي احتمال للتجني، أو المبالغة، وما إلى ذلك، وهذا أدحض لحجة المرتكب، وأبعد أثراً

---

(1) تفسير الميزان ج20 ص347.

(2) الآية 14 من سورة القيامة.

في فضيحته وخزيه.

4 ـ كما أن معرفة هذا الإنسان بصفته البالغة السوء يكون من موقع المعاينة والإشراف التام والشهود، وشعوره الحقيقي بها. وهذا يزيد من قبح ذلك فيه، ويجعله أولى بالملامة والعذاب والخزي، من الذي لا يكون ملتفتاً لهذا الأمر، ثم يأتيه من يكشف له عنه، ويخبره به.. أو ربما شاهد بعض الدلائل، واللوازم المشيرة إلى وجود الصفة الذميمة فيه.

5 ـ والشهيد هو العالم بالأمر بالمشاهدة والمعاينة المباشرة، ويكون على صلة حقيقية بهذا الذي أدركه وشاهده..

ويلاحظ: أنه تعالى لم يقل: «وإنه على ذلك لشاهد بصيغة اسم الفاعل»، بل قال: لشهيد مستفيداً من صيغة المبالغة، ليدل على كثرة، وتكرر معاينته ومشاهدته له..

وبهذا الشهود والمعاينة يتأكد أن معرفة الإنسان الكنود بهذه الصفة فيه لم تكن بالأدلة والشواهد التي تفيد اليقين، بل تجاوزت ذلك لتصل إلى درجة عين اليقين، كما أوضحناه في تفسير سورة التكاثر.

6 ـ ورضا الإنسان لنفسه بأمر كهذا يدل على اختلال كبير في فكره وفي شخصيته، ويشير إلى أن هذا الكُنود قد فعل فعله فيه، ودمّر أعز ما لديه، حتى فقد أشرف الوسائل، وأقواها وأشدها تأثيراً في إصلاح أمره، وترميم ما لحق به من اختلال ودمار.

مرجع الضمير في قوله: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ:

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.. وأول شيء يحتاج إلى بيان: هو تحديد مرجع الضمير في «إنه»، فقد قال كثير من المفسرين: إنه يرجع إلى الله سبحانه، فإنه هو الشهيد، وهو شديد ومحب للخير أيضاً.

وقد قلنا:

أولاً: إن هذا يتضمن إهانة للذات الإلهية، إذ لا يجوز وصف الله تعالى بأنه شديد الحب للمال.

ثانياً: إن هذا لا يتلاءم مع قوله: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾. فإن الخطاب ليس موجهاً له تعالى قطعاً.

ثالثاً: إن الضمائر قبل هذه الآية وبعدها، وفيها تتحدث عن موجود واحد، هو الإنسان الكنود، وتبين حالاته وغيرها، ولم تذكر الرب في هذه الآيات بشيء، ليتوهم أن الضمير يعود إليه.

حُبِّ الْخَيْرِ:

والمراد بالخير في هذه الآية ليس هو الخير الذي يريده الله، وينشده طلاب الكمالات، مما يوجب صلاح دنياهم وآخرتهم، ومن موجبات فوزهم وسعادتهم، وهو غاية امنياتهم..

وليس هو الخير الذي توصف به الصلاة وسواها، فيقال: الصلاة خير موضوع، ولباس التقوى، ذلك خير، والعلم خير، والجنة خير، والسعادة خير.. وخير الزاد التقوى، وما إلى ذلك.

بل المراد بالخير: هو ما تكون خيريته، ناشئة عن المحل والجهة التي وظف فيها، مثل المال الذي أراد الله للخلق أن يستفيدوا منه فيما يسعدهم، ويحل مشاكلهم، ويوصلهم إلى الجنة.

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من النعم الإلهية، كالأولاد، والجاه، والعلم، وكذلك الغرائز، مثل غريزة الجنس، والعقل، والمشاعر، فإن كل ذلك كان الهدف من إعطائه للإنسان، إسعاده وتمكينه من نيل الكمالات، والحصول على الرضا الإلهي..

فإذا استعمل هذه النعم فيما لا يرضي الله، وفي الفساد والإفساد، وانقاد لهواه، واستجاب لصفة الكنود فيه، بمختلف دلالاتها، ووظف كل ذلك حتى الصلاة والصوم، وسائر العبادات والأحكام في غير رضى الله تعالى، وتظاهر بالتقوى، ووظف علمه وعقله كشرك يوقع الأبرياء فيه.. فإنه يكون من الخاسرين.

والأمثلة التي ذكرناها تدل على أن الإنسان الكفور، والبخيل، واللوام لربه قادر على توظيف أكثر النعم في خدمة أهوائه، وشهواته، ويحوِّل النعمة إلى آفة فتاكة في حياته، وحياة البشر، هادمة لسعادتهم، مهلكة لجهدهم.

وإنما قلنا: أكثر النعم، والخيرات، لأن بعض هذه الخيرات يأبى هذا التوظيف، فمثلاً لا يستطيع أحد توظيف التقوى الحقيقية، التي هي خشية نفسانية لله، وانضباط حقيقي في خط الطاعة له ـ لا يستطيع توظيفها ـ في إنتاج الشرور، وفي خدمة الأهواء..

لكن يمكن أن يتظاهر بالتقوى المفقودة لديه، لخداع السذَّج والبسطاء.

كما أن حب الجنة لا يمكن أن يكون إلا خيراً.. ما دام حالة قائمة في النفس.. ولكن يمكن للبعض ادِّعاء هذا الحب زوراً للمتاجرة بهذا الادِّعاء.

ولكن حب المال مثلاً، الذي قال الله تعالى عنه على سبيل الذم: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾[1]، وكذلك حب الأولاد والنساء.. فيه خطر شديد على مصير الإنسان، حين يستغرق الإنسان فيه، حتى ينسى نفسه، وربه، وآخرته. ويوظف عقله، وكل وجوده، وما لديه في سبيل الحصول عليه وتكديسه، وتكريسه، فإن هذا المال سيكون مصدر شقاء وبلاء له..

وقد أطلق الله كلمة «خير» على هذا المال، فقال: ﴿**إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾[2]. أي: إن ترك مالاً.

فيتلخص: أن هذا النوع هو من النعم التي تكون خيراً بإرادة الإنسان واختياره.. فإذا استعملها في خدمة أهوائه الباطلة، في غير ما يرضي الله، فإنها تكون سبب شقاء وبلاء، بدل أن تكون سبباً في السعادة والفوز.

والكنود: الذي هو كفور، ولوام لربه، وشحيح، وبخيل، وحريص، ومحب للمال.. فهو يحب الخير، الذي أراد الله له أن يسعد به، ليغذي به كفوريته، وحرصه، ويشبع نهمه، وليعصي الله، وكذلك الحال بالنسبة لسائر النعم، كالجاه، والولد، والنساء، والعقل، والعلم، وما إلى ذلك..

---

(1) الآية 20 من سورة الفجر.

(2) الآية 180 من سورة البقرة.

لِحُبِّ الْخَيْرِ:

بقي أن نشير إلى اللام في قوله: ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ وموقعها من الكلام، والمراد بها..

فقد يقال: المراد بالآية: إنه شديد الحب للخير.. لا شديدٌ لحب الخير.

ونقول:

بل المراد: إنه لحب الخير لشديد، وسبب ذلك:

أنه يحتمل في هذه اللام في هذا المورد معنيان:

الأول: أن تكون للتعدية، ويكون معنى الآية: أن هذا الإنسان قوي وشديد لهذا الأمر. أي مطيق له، قادر على القيام بأعبائه، ولكنه ضعيف فيما يرضي الله.

والسبب في ذلك: أن نفسه تنشط للمال، الذي يريده ليغذي به حرصه، ويشبع شهوته.

الثاني: أن تكون اللام لام السببية، ويكون المعنى: إن هذا الكنود الحريص البخيل، لأنه يحب المال، صار شديداً، فشِدَّته كانت بسبب حبه للمال.

الفصل الخامس:

أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ

أَفَلا يَعْلَمُ:

وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**﴾. فالهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة، فكأنه قال: أيفعل كل هذه الأفاعيل القبيحة، وهذا حاله في السوء، أَفَلَا يَعْلَمُ الخ..

والحال: أنه واقف على حقيقة أمره، وقوف معاينة وشهود، بل هو كثير الشهود على نفسه، حاضر حضور المدرك، الملتفت، المتيقن، الذي بلغ درجة عين اليقين.

ومما يزيد فعل هذا الشخص قبحاً: علمه بالبعث والحساب، وهو علم مستند إلى الأدلة اليقينية القاطعة لكل عذر، وليس مجرد ظنون وحدسيات، لأن الفطرة والعقل السليم، بالإضافة إلى ما أخبر به الأنبياء، الذين تثبت معجزاتهم صدقهم تُثْبِت له ذلك، ولا تبقي له عذراً.

فإذا كان الكنود يعلم ذلك، ثم يرتكب هذه القبائح، فيكون بخيلاً لوَّاماً لربه، كفوراً، جاحداً، عاصياً، متمرداً.. فإنه يكون ميؤوساً من صلاحه.. ولكنه يعلم بالبعث، والحساب، حيث تبلى السرائر، ويظهر ما في الضمائر، ويُعرف المحق من المبطل، ويُجازى الناس بأعمالهم.

إِذَا بُعْثِرَ:

ثم إنه تعالى قال: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**﴾.. فتحدث عن البعثرة، لا عن البعث.. والبعثرة: هي إخراج الشيء إلى العلن بصورة غير منتظمة.

وهذا غاية الإعجاز، وأعظم إنجاز، فإن هؤلاء الذين لا يحصي عددهم إلا الله.. وقد أكلتهم الأرض، وهوامها، حتى لم يعد يرى لهم أثر فيها، بل إن المختبرات ربما تعجز عن التعرف على العناصر المكونة للإنسان في تراب قبره.. سواء في ذلك مكوناته الجسدية، أو النفسية، والمشاعر، والعلوم والمعارف، وغير ذلك من حالاته، حتى إذا كان يوم القيامة، فإنه سيعاد تكوينه، ويتشكل شخصه من تطاير ذراته المبعثرة، والتي قد يكون كثير منها قد تشتت إلى مسافات بعيدة.. فتأتي تلك الذرات لتستقر في مواضعها، حتى يعود كما كان، ثم تعود إليه روحه، ومشاعره، وذاكرته، وعلمه، وحالاته النفسية، وعقله، وفهمه، وسائر مكوناته، التي هي في غاية الإبداع والرقي.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبذلك يصنع الله، من هذا اللانظام، أبدع الأنظمة، وأعلاها، وأغلاها.. وحيث لا يدانيه شيء في بدائع صنعه، ودقة تكوينه وإعجازه. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[1].

(1) الآية 4 من سورة التين.

وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1].

والمراد بالآيات: المعجزات القاهرة للعقول، والتي تظهر الحق، وتضطر الناس للبخوع، والقبول والخضوع، مع مزيد من الانبهار ببدائع الصنع الإلهي.. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[2].

مَا فِي الْقُبُورِ:

وقد قال تعالى: ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. فاستفاد من كلمة «ما» التي تستعمل غالباً لغير العاقل، ولم يقل: «من في القبور»، مع أن كلمة «من» كثيراً ما تستعمل للعاقل.

ولعل سبب ذلك:

أولاً: أنه إذا قال: «من في القبور»، فذلك يعني: أنه فرضهم ـ حتى في حال موتهم ـ عقلاء، أحياء، مريدين، كارهين، يحملون سائر ميزاتهم الإنسانية وجميع ما له من صفات وسمات.

مع أن المفروض: أنهم أموات، وإنما يصبحون عقلاء بعد تمامية تكونهم بعد خروجهم من قبورهم.

فتكون كلمة «ما» هي التي تناسب حالة الموت المرتكزة في أذهان الناس.

ثانياً: إذا كان جميع البشر سوف يخرجون من قبورهم، كبيرهم وصغيرهم ولو كان رضيعاً أو سقطاً، عاقلهم، ومجنونهم، عالمهم وجاهلهم، ولو لأجل

---

(1) الآية 53 من سورة فصلت.

(2) الآية 39 من سورة طه.

أخذ حقهم من الذين اعتدوا عليهم في دار الدنيا، وإذا كانت البعثرة هي للأجزاء المتناهية في الصغر، فإن هذه الأجزاء ليست عاقلة حين يبعثرها، وإنما يلحق بها العقل، والمشاعر، وسـواها.. وتنتقل إلى هـذه المرحلة الراقية بعد تمامية تكوينها بعد البعثرة.. فلا مجال للجزم بأن الذي يبعثر من هـذا القبر أو ذاك من أجزاء هو من جملة العقلاء..

بل هو ليس منهم حين تحصل البعثرة..

فيكون استعمال كلما «مَا» للدلالة على الأشخاص بغض النظر عن صفاتهم وسماتهم هو الأنسب والأولى.

ثالثاً: قد يقال: إن الميت يسمع الكلام، ولكنه لا يقدر على الجواب، وقد كلَّم النبي «صلى الله عليه وآله» قتلى المشركين في بدر، وقال لأصحابه: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني[1].

---

(1) راجع: تاريخ الخميس ج1 ص386 والسيرة الحلبية ج2 ص82 و (ط دار المعرفة) ج2 ص431 وحياة الصحابة ج2 ص333 و 334 وبحار الأنوار ج19 ص346 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص300 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج14 ص179 وإمتاع الأسماع ج12 ص143 و 160 وعيون الأثر ج1 ص345 والميزان ج9 ص31 وتاريخ الأمم والملوك ج2 ص156 والكامل في التاريخ ج2 ص129 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج1 ص158 وج3 ص357 والسيرة النبوية لابن هشام (ط مكتبة محمد علي صبيح

وكلَّم علي «عليه السلام» بعض قتلى الجمل، فقال لأصحابه مثل ذلك أيضاً[1].

كما أن الشرع الشريف قد أمر بتلقين الميت حجته في الأمور الاعتقادية حين يوضع في قبره.

ويجاب:

بأن بقاء بعض القوى مدة يوم أو أيام على حالها من العمل، بعد طروّ

وأولاده) ج2 ص466 والسيرة النبوية لابن كثير ج2 ص449 و 452 وسبل الهدى والرشاد ج4 ص55 وقصص الأنبياء لابن كثير ج1 ص162 وإعانة الطالبين ج2 ص160 ومسند أحمد ج1 ص27 وج3 ص104 و 220 و 262 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج2 ص101 وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج8 ص163 و 164 وكتاب السنة لابن أبي عاصم ص411 والسنن الكبرى للنسائي ج1 ص665 ومسند أبي يعلى ج1 ص130 وج6 ص72 و 433 و 460 وصحيح ابن حبان ج14 ص424 و 458 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج10 ص377 و 392 وتاريخ مدينة دمشق ج38 ص260 وتاريخ الإسلام للذهبي ج2 ص63 و 83 والمصنف لابن أبي شيبة ج8 ص480 ومنتخب مسند عبد بن حميد ص364 ومجمع الزوائد ج6 ص91.

(1) الجمل للشيخ المفيد ص391 و (ط مكتبة الداوري ـ قم) ص209 والإرشاد للمفيد ج1 ص254 والجمل لابن شدقم ص153 وبحار الأنوار ج32 ص207 وأعيان الشيعة ج1 ص461.

الموت لا يعني أن تستمر هذه الحالة إلى ما بعد الفناء التام للأجساد، وحينئذٍ ربما تتطور حالات التواصل مع الأشخاص، من خلال أرواحهم، التي تنقل إلى وادي السلام في النجف، أو إلى وادي برهوت.

التهويل للردع:

1 ـ إننا حين نتحدث عن التهويل قد يظن ظان: أننا نتحدث عن مجرد مبالغات، واختلاق صور مخيفة، كما ربما يفعله الناس في مثل هذه الحالات.

ولكن الحقيقة هي: أنه تعالى لا يمارس هذا النوع من البيان، بل يسعى للردع عن الغي، بإظهار بعض جوانب الحقيقة المخيفة بنفسها وذاتها. والتي لو ظهرت على حقيقتها التامة للناس لاستلبت منهم أرواحهم، ولذابت قلوبهم، وتلاشت كل مكامن الحياة فيهم.. وهو تعالى لا يظهر حالهم هذه رفقاً بهم، وإبقاء عليهم.

2 ـ وقد رأينا: أنه تعالى في هذه الموارد قد: أعطى صورة عن البعث من القبور، في بعض تجلياتها.. قد تبدو مخيفة بدرجة معينة. وذلك بهدف ردع هذا الإنسان الجامع لصفات ذميمة مهلكة له، الذي وصفه الله تعالى بالكنود، كما ألمحنا إليه.. فاكتفى بذكر البعثرة غير المنتظمة، والتي تتحول إلى معجزة تعجز العقول عن تصورها، حين يعيد الله البشر إلى حالتهم الأولى بعد فناء أجسادهم، وحيث لا يمكن تمييز شيء منها عن التراب الذي تلاشت فيه، ولا يمكن العثور فيه على أثر منها..

وذكر تعالى أيضاً: القبور، التي يتحاشى الإنسان تصور نفسه فيها، ويسارع إلى طرد هذه الفكرة أو الصورة عن مخيلته.. ربما لأنه يريد أن يهز وجدان هذا

الكنود، باستحضار هذه الصورة التي هي مجرد همسة خفيفة، في وجدانه تذكِّره بضعفه وعجزه، مع أنه كان يمكن أن يثير موضوع البعث بصورة مجملة، فيذكر له أنه تعالى سيحاسبه يوم القيامة، أو أنه خبير بأعماله..

وقد أكد هذه الصورة عن كيفية البعث من القبور، بما أشير إليه في الآيتين التي بعد آية البعثرة، حيث قال: ﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾. كما ربما نشير إليه.

الحديث عن فرد، أو عن جماعة؟!:

وقد قال تعالى هنا: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾.. فهو يتحدث عن مفرد غائب.. ولكنه عاد فقال: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾. فدل على أنه يتحدث عن جماعة، فكيف نفهم ذلك؟!

ويجاب:

بأن الضمائر في الموردين لا ترجع إلى مرجع واحد، بل الضمير في قوله: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ**﴾، يرجع إلى الإنسان الكنود.. لكن الضمائر في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾. لا ترجع إلى الكنود، بل ترجع إلى الذين يبعثرون من القبور، وهم جماعة.

مَا فِي الْقُبُورِ:

ومن المعلوم: أن هناك من لا قبر له، بل أكلته الأسماك في البحار، أو الوحوش في القفار، فلماذا لم يشر تعالى إلى هؤلاء؟!

ويجاب:

بأن الكلام هنا قد لوحظ فيه الأعم الأغلب، وهو لا يأبى عن شمول هذا الفريق، أو غيره ممن لا قبور لهم، فإن الله تعالى يعيدهم، وتأتي أجزاؤهم المتناثرة لتتلاءم وتتشكل، وتعيد الجسد إلى سابق عهده، بلحمه، ودمه، وعظمه، وسائر جزئيات جسده.. وكذلك سائر خصوصياته العقلية، والنفسية، والعاطفية، والعلمية، والمشاعر، والأحاسيس، والإيمان والكفر، والمعارف، فإنها كلها تخرج على غير نظام، ثم تتلاءم وتتشكل، وتجسد معجزة كبرى، وهائلة في عالم النظام، وبديع الصنع..

وهذا الأمر ينسحب على جميع البشر، الذين يختلفون في سائر خصوصياتهم الجسدية، والروحية وفي أشكالهم، وسائر أحوالهم.

فمن يفعل ذلك، ألا يكون قادراً على عقوبة من يعصيه، ويتمرد عليه وهو الواقف على دقائق أعماله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد..

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ:

التحصيل: هو استخراج الشيء من مكمنه، وتمييزه عن غيره.. ولذا يطلق على إخراج اللب من القشر، وتصفية المعادن، واستخراج الذهب من معدنه.. والآية هنا تتحدث عن تحصيل ما في الصدور، وما في الصدور هو النوايا والأحقاد، والبخوع، والإنقياد، والرضا، والسخط، بل والطاعة والمعصية، والحب والبغض، والإيمان والكفر، والصفات النفسانية الحسنة والسيئة، كالجبن، والبخل، والغل، والغدر، والغلظة، والقسوة، والوفاء..

وهذا التحصيل أو التمييز، والإظهار والاستخراج هو الذي أشير إليه

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1].

ففي يوم القيامة يظهر الله تعالى ما في القلوب، ويميز بينها، ويعرف المؤمن من المنافق، والمرائي من الصادق، ويفتضح الذين يسرون الكفر، والغل، والغدر، والصفات الذميمة، وأصحاب النوايا السيئة، وكل ما يحاولون التستر عليه، وإخفاءه، وإنكاره.

ومن الواضح: أن الذي يحصِّل ما في الصدور بعد أن اندرس هذا الإنسان وصار تراباً، وفقد سائر صفاته وسماته: العقلية، والروحية والنفسية وكل شيء.. أليس قادراً على محاسبته ومعاقبته، وهو أقدر القادرين وأعلم العالمين، وأبصر الناظرين؟!

أيهما أشد؟!:

ولعل قائلاً يقول: أليس هذا النشر للأجساد الفانية أعظم وأشد تعقيداً من تحصيل ما في الصدور، فيكون ذكره قبل ذكر تحصيل ما في الصدور بسبب أهميته، وشدته؟!

ونجيب:

بأن الأمر بعكس ذلك، فإن تحصيل ما في الصدور هو الأهم والأشد، فيكون قد ترقى في ذكر هذه الخوارق من الأدنى إلى الأعلى، وذلك لأن ما في القبور كان له أصل منتشر بين أجزاء ترابية أو مائية، أو غيرها، فاستعادة

(1) الآية 9 من سورة الطارق.

هذه الأجزاء من مواضعها هذه لتوضع في مواضعها الأصلية.. إنما هو استعادة لشيء موجود.

ولكن خلجات الصدور والنوايا، والمشاعر، والأحاسيس، وصور المعلومات، والإيمان والكفر، والخوف والرجاء، والعزم والجزم، والاعتقادات، والحالات النفسية، مثل حالات الحب والبغض، والطمأنينة والهلع، والشجاعة والجبن، ليس لها وجود في القبر والتراب، والماء، والهواء، أو في أي مكان آخر.. كما هو الحال في النشر للأجساد.

إن ذلك كله، قد ذهب وتلاشى وجوده العيني، فليس هو في القبر، ولا في غيره، ـ بحسب الظاهر ـ فكيف يمكن تحصيله، ثم تمييز غثه من سمينه، وحقه عن باطله؟!

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ:

1 ـ قد عرفنا: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾. يرجع إلى الذين يبعثرون من قبورهم.

2 ـ إن التعبير هنا بكلمة «ربهم»، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ**﴾ حيث لم يقل: إن الله، أو إن إلههم.. ربما كان سببه أن كلمة الله، أو إله تعطي: أنه تعالى خبير بهم من موقع ألوهيته، وعظمته، وقاهريته، وقدرته، وهيمنته.

ولكن الربوبية تعني العلاقة بين العبد وربه، الذي يريد حفظه، وإسعاده، وأن يراه ينمو ويتكامل، وهي علاقة تربية، وإصلاح وترشيد، وإيصال الإنسان إلى كمالاته التي بها سعادته ونجاته.

ولأجل ذلك: يسخِّر له تعالى ما في السماوات والأرض، لتكون وسائل سعيه إلى الله، من خلال إعمار الكون بها وفق الخطة الإلهية..

وليعينه كل ما في هذا الكون على صناعة نفسه، وتهذيبها، وتأكيد معنى الإنسانية الصحيح فيها..

وليعينه أيضاً على بلورة الأخلاق الرضية والفاضلة في شخصيته وفي سلوكه.

فالربوبية مقام رعاية ورحمة، ولأجل ذلك قال تعالى هنا: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾.

فهذا التهديد الإلهي للكنود العاصي هو من موقع الرحمة له، واللطف به، لأنه يريد أن يبعده بهذه البيانات عن دائرة الخطر، وعن مواجهة العقوبة في الآخرة..

إنه يريد له أن يستفيد من هذه الرعاية، ومن النعم التي هيأها له في إصلاح نفسه، ولا يتحدث من موقع الهيمنة والكبرياء والعظمة.

بِهِمْ:

ويلاحظ هنا أيضاً: أنه تعالى قال: ﴿**إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ**﴾، ولم يقل: إن ربهم خبير.. ربما لأنه لا يريد لأحد أن يتوهم: أن الله تعالى خبير في ذاته، ولا يمكن أن نلمح أي خلل في هذه الخبرة، ولكن الخبرة بالناس قد تكون في مجالات تحليلية عامة، من خلال سنن وضعها تعالى في خلقه، ورسم لهم حياتهم العملية في نطاقها عامة.. فأما شؤون الأفراد فرداً فرداً، فربما لا يحظى بالاهتمام اللازم، وقد لا تكون الخبرة بالغة الدقة فيه.

وهذا وهم ظاهر، لا نجده إلا لدى ضعفاء العقول، أو ضعفاء المعرفة، الذين لم يعرفوا الله حق معرفته، واستولى عليهم الشيطان بأحابيله، وتسويلاته.

ولذا قال تعالى: ﴿بِهِمْ﴾.. ليدل على أن خبرته بهم ليست ظاهرية، بل هي تقتحم وجودهم كله، وتسكن في داخل ذواتهم، وكوامن نفوسهم، ولأجل ذلك لم يقل: بأعمالهم، لكي لا يتوهم جاهل: أن علمه تعالى بالأعمال علم بأمر معلن وظاهر، بخلاف العلم بما في النفوس، وهي المعرفة الأرقى والأهم.

يَوْمَئِذٍ:

وقد يختلج في خاطر البعض سؤال آخر يقول: إن الله تعالى خبير بهم في كل حين، فلماذا قال: يومئذ؟!

ونجيب:

بأن يوم القيامة هو يوم الجزاء وفق العمل، على أن يكون ذلك بدقة بالغة تراعي حتى مقدار الذرَّة من الخير والشر.. قال تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[1].

فلا بد من الموازنة بين العمل والجزاء، في نفس لحظة الجزاء وفي هذه اللحظة لا بد من تجسد الخبرة العملية في أرقى تجلياتها، وأدق حالاتها.

لَخَبِيرٌ:

قلنا: إن هذه اللام تسمى اللام المزحلقة.

---

(1) الآية 7 و 8 من سورة الزلزلة.

وإنما قال لخبير، ولم يقل: عليم، مثلاً.. لأن كلمة عليم قد تطلق على من يعلم الأمور في كلياتها، وبصورة مجملة، ومن دون دخول في التفاصيل، فقد يتوهم جاهل: أن هذا العليم، قد لا يراعي التفاصيل الدقيقة، ويفوته بعضها، فتضيع حقوق بعض من يخضعون للحساب لديه..

ولكن الخبير يكون عالماً بالحقائق والدقائق والبواطن، فلا يفوته منها شيء، ويزيد ذلك وضوحاً: أنه تعالى قال: إنه خبير بهم، ولم يقل: عالم بما في قلوبهم، أو صدورهم، أو ما إلى ذلك..

كلمة أخيرة:

كانت تلك لمحات سجلناها حول سورة العاديات، ولا ندَّعي: أن ما ذكرنا قد استطاع أن يكشف أسرارها، أو أنه استخرج دقائقها، أو ظفر بكنوزها أو أظهر لطائفها.

بل نقول:

إن هذا هو الجهد الناجز للقاصر العاجز..

ولا ينال معاني كتاب الله، ولا يعرف القرآن إلا من خوطب به، وهم النبي «صلى الله عليه وآله»، وأهل بيته الطاهرون المطهرون، كما أشير في قوله تعالى: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[1].

والحمد لله، والصلاة على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين..

حرر بتاريخ 28 شهر رمضان 1437 هـ. ق.

تموز/ 2016 م. ش.

---

(1) الآية 79 من سورة الواقعة.

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

1ـ الآداب الطبية في الإسلام

2ـ ابن عباس وأموال البصرة

3ـ ابن عربي سنيّ متعصب

4ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

5ـ أحيـوا أمـرنا

6ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

7ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

8ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

9ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)

10ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

11ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

12ـ الإمام علي والنبي يوشع ‘

13ـ أهل البيت ^ في آية التطهير

14ـ أين الإنجيل؟!

15ـ بحث حول الشفاعة

16ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

17ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

18ـ بنات النبي ’ أم ربائبه؟!

61ـ ظلامة أم كلثوم

62ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

63ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت

64ـ علي × والخوارج (جزءان)

65ـ الغدير والمعارضون

66ـ فصل الخطاب في الميزان

67ـ القول الصائب في إثبات الربائب

68ـ كربلاء فوق الشبهات

69ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×

70ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!

71ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!

72ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)

73ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).

74ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»

75ـ المسجد الأقصى أين؟!

76ـ مقالات ودراسات

77ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية

78ـ المواسم والمراسم

79ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

80ـ موقف الإمام علي × في الحديبية

81ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)